الثأر والليل

* الكتاب: الثأر والليل (مجموعة قصصية)
* الكاتب: مهاب حسين مصطفى
* تصميم الغلاف: صابرين عبدالهادي
*مراجعة لغوية عبدالله الصياد
* إخراج داخلي: سليل الفراعنة
* رقم الإيداع: 3002/ 2022
* الترقيم الدولي: 978-977-6968-07-3

المدير العام: عزيز عثمان
لمراسلة الدار: **daralmuntadaa@gmail.com**
واتس آب: 01005186476
صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع

صدر عن دار المنتدى
بالتعاون مع دار المثقف
دار المنتدى للنشر و التوزيع
المثقف للنشر والتوزيع

(مجموعة قصصية)

الثأر والليل

مهاب حسين مصطفى

صدر عن دار المنتدى
بالتعاون مع دار المثقف

دار المنتدى للنشر و التوزيع

المثقف للنشر والتوزيع

الفهرس

مطاردة

انطلـق الكلـب في صـمت الليـل، عينـاه تبرقـان بـالخوف، تلمعـان في الظـلام، نظـر هنـا وهنـاك، يبحـث في الـتراب عـن لقمـة، يفـتش في الأنقـاض، في الزوايـا، في الأمكنـة المتربـة، عينـاه تحمـلان خوفا مـن مجهـول، السـماء يتلاشىٰ مـن أفقهـا النـور، القمـر يـرتعش، الليـل يبسـط جناحيـه فـوق الوجـود. الكلـب جـائع ولا يجـد شـيئا سوىٰ ليل لا ينطق.

ينظـر لأعلـىٰ، يرفـع ذيلـه، ثـم يخفـض رأسـه في صـمت، الجـوع يمزق شيئًا في داخله.

وينطلق صوت، تمرُق عربة...

الكلب ينتفض، الحياة تفـور في داخلـه، يمضـي كـالمجنون بـين الأزقة والشوارع والعربة وراءه مترصدة، يُبصر بين الظلام قمـرا ملوثـا بالدماء، تبرز بندقية، تدوي صرخة...

يسقط الكلب، عيناه زائغتان بين الأرض والسماء. مضت العربـة في جوف الليل...

يُبصر القمر تدارىٰ في خجل خلف الغمام.

الثأر والليل

كنت أعلم أني أواجه مصيري بكل ضراوته وعنفه، وأعلم أيضا أني مدفوع إلىٰ تلك المواجهة دفعا لا أستطيع منه فكاكا، لكنه قدري أنا وحدي!

كانت الساعة الثانية ظهرا والميدان مكتظ والموعد تلقيته دون أي تفسير، عند توهج الزحام وذروة الصخب، وبينما أتجول علىٰ الطوار، اقترب مني شخص يرتدي زيا فرعونيا لا أعلم من أين جاء، كأن الأرض انشقت عنه للتو واللحظة، وبقدر ما أخذتني غرابة ملبسه، شدني إليه بوجهه الهادئ:

- الموعد قد تأجل.
- لماذا؟
- لن يستطيع الحضور وعليك ملاقاته في سكنه الخاص.
- لكن هذا ليس بعدل.
- لا تنس العدل مبتغانا الأساسي.

وهو يولي ظهره ناحيتي مستقبلا هدير المارة والعربات.

- فلتكن متأهبا.

«أخبرني أبي أني أتدرج من أسرة فاطمية وأن أحد أجدادي كان واليا في الباب العالي».

تذكرت هذا وأنا أدق بقدمي ذلك البناء العربي المظهر المعبق برائحة مسك عتيق، وبمجرد أن دنوت من نهاية الردهة التي انفسحت لحديقة ضخمة، تدانت إلىٰ سمعي أنغام عزف ناي قديم فجذبني حنين غامض وتوق للأيام الغارقة في الظلام، ونشوة أفقت منها علىٰ رجل يرتدي جبة وقفطانا وعمامة بيضاء يخبرني بأن الموعد قد تغير:

- أظن أن المزاح قد فاق الحد.

- لا بد من التأني إن أردت الخلاص.

- لن أتركه.

- لا تخف هو أيضا لن يتركك.

كيف أخاف وأنا أول من بحثت عنه _في نسل العائلة_ قبل أن يبدأ هو في البحث عني!

أوصافه في مخيلتي كما تلقيتها عن أبي الذي تلقاها بدوره عن جده، وإن كان لم يره أحد منهما...

ملامح حادة، جبهة عريضة، أنف مدبب، وشعر داكن السواد.

- «احترس فهو بارع في التنكر وتلك إحدىٰ حيله للإيقاع بغريمه».

أطأ بقدمي باب الفتوح.، يلطم وجهي عبق زمان أبدي يترنح علىٰ البوابة القديمة، أعبرها ومن حولي تتقافز أنسمة فجر جديد أسعىٰ للقائه. وجدتني عند المكان المقصود كما تلقيت الرسالة، شهقت بعمق وزفرت طاردا كل مخاوفي، رأيته مقبلا من بعيد يتلحف

الظلام، ارتعدت مفاصلي، لم أصدق أني أول من يراه رأى العين من نسل العائلة المنحدر من عصور سحيقة. تجلت لي في نفس اللحظة كل عذابات الماضي فبدوت أكثر ثباتا، بدأت ملامحه تحت ظلال القمر القمر المنعكس خلف البنايات تتضح شيئا فشيئا.

رقبت نافذة تفتح في بيت قديم وطفلا يتبول بجانب حائط مرسوم عليه بالطباشير خروف بلا رأس، وتقدمت نحوه، أستقبل وحدي كل الشياطين وتجابهني الخيالات، تنازعني ذكرى أبي ويهزني لقاء الرجل وعبق حكمته وصوفية حديثه؛ فالرجل أوصافه مغايرة تماما لوصف أبي، بل أخبرني بأن أبي هو الذي ظل يتعقبه فلم يجعل أمامه خيارا، ولا يمكن أن يكون مثل هذا الرجل قاتلا أو لصا:

- إياك يا ولدي أن يخدعك بتقواه وورعه المصطنع، فقدرته على التلون هي ما جعلته يحيا كل هذا العمر.

- «لا أريد أن أصيبك بسوء إلا إذا اخترت أنت».

يدق الليل بعصاته أرضية الغرفة، فأرى أبي يتيه عاريا في أرض خاوية مترامية خالية من كل أثر، وأراني أرقبه من بعيد على قمة تل وهو يلهث، ولهاثه كأنه يضخ في قلبي ويسري كالخدر في عروقي. وأراني أتجرد من ثيابي أنا الآخر وأهبط التل، وأظل ألهث معه، حتى يغمرنا الضباب.

- أنسيت وصية أبيك أيها الجاحد؟

لابد أن أؤمن بجرم الرجل كي أنال منه، إذا تأكدت فلن أبالي بالعواقب وسأنفذ المطلوب مهما كان.

لكن أبي طالما راوغني كلما استنطقته عن سبب العداء، إنما كان يكتفي بإيداع بذرة الغل في صدري طوال مراحل عمري حتىٰ كبرت الشجرة، وقبل أن تثمر وافاني الرجل بهيبته الوقورة وقطع الشجرة من الجذر، وتركني أتخبط!

- يا أبي إن كنت ضحية الرجل، فأنا بربك ضحية من؟

لو أستطيع إنطاق الموتىٰ.

فوق أرض طباشيرية تداهم الجنود أبواب القلعة وتسقط آخر حصون الدولة الأيوبية، وتجر النساء سبايا وتداهم العسس بيوت الآمنين، يسلبون الدفء من المخادع والأمن من النفوس، وتهرع الجمال إلىٰ أعالي التلال وتلقي بنفسها منتحرة، ويغيض الماء من الآبار، ويرتع الليل بلا راد في الطرقات، وأرىٰ أبي طفلا فوق كتف جدي، يسأله عقب انصرافه من دار الوالي:

- أرىٰ الجمع يتكلمون عمن يبيعون أنفسهم للوالي، فما الخيانة يا أبتاه؟

يرد جدي وهو يهرول مسرعا:

- الخيانة يا ولدي أن يظهر الناس عكس ما يبطنون.

وأبصر الرجل يهبط من فوق جواده يقف أمام جدي وأبي متأملا ثم يشهر سيفه. أخترق أكوام الناس والعربات، أمّثل في المقهىٰ المواجه للقلعة حيث يقضي صديق أبي، أوقاته في لعب النرد:

- أهلا بالحبيب ابن الحبيب.

- فاض بي الكيل فلم أجد غيرك.
- كنت أعلم بأنك ستأتي فلم ينج أحد.
- لا أحد يريد إنبائي بالحقيقة.

تهافت إلىٰ سمعي تقاسيم قانون غير بعيدة، فتجابه روحي أنسام فضفاضة، وأنا أهم بمغادرة المقهىٰ تعجبت، فرغم مرور الزمن ما زال الليل يجيء تماما كما يجيء النهار، أمضي أنا وطفلي وسط الميدان المزدان بالأضواء والصخب، بين الأضواء المنهمرة من نوافذ البنايات المتحلقة الميدان الواسع، يطلب مني طفلي الصغير أن أحمله فوق كتفي لأنه تعب، فأحمله وأخترق الميدان في ثبات وإصرار.

يهبط الرجل من عربته الأنيقة الفارهة، يقف أمامي، يتأملني انا وطفلي و...

المهمة

بمجرد أن لمحوه يقترب، عرفوه من مشيته «كأنه يحجل» إثر إصابة قديمة في ساقه لا يعرفون سببا لها.

المنزل يتبدىٰ من المقهىٰ الواقع علىٰ ناصية زقاق بواجهة متقشرة الطلاء، ذو أربعة طوابق.

– شيشة وشاي.

شرع « أبو أحمد » يمتص أنفاس المعسل فيما نور داخله قول الرئيس:

– إن أردتم النجاح فعليكم بالحيطة .

شد ياقة البالطو الرمادي، ارتشف قطرات من الشاي الغميق، بيد أن عيناه كانتا تدوران في محجريهما كالبندول ما بين بوابة المنزل وشرفة الدور الثالث.

المشتبه به: مصطفىٰ عبد الكريم

التحريات المدونة بملف المذكور:

العمر اثنان وأربعون.

هيكل نحيل، وجه ضامر، عينان غائرتان .

انفصلت عنه زوجته منذ حوالي خمسة أعوام وأخذت الطفلين بناءً علىٰ إصرار خالها الذي يشغل أحد المناصب الأمنية.

طرد من عمله بأحد المصانع دون سبب واضح، حاول الهجرة عدة مرات، عمل جرسونا في كافتيريا، مندوبا للمبيعات، يشيع عنه جيرانه الانطواء الشديد، تتردد عليه سحنات لا يألفها أهل الحي، بالإضافة لبعض السحنات الأجنبية...

جاء علىٰ لسان صاحب دكان كواء أسفل المنزل:

- أغلبهم يغادرون المنزل بملابس غير التي جاءوا بها، بل أحدهم جاء في حلة من الچينز... وخرج مرتديا زيا فرعونيا غريبا!

ملحوظة: تم مداهمة المنزل أكثر من مرة ولم يعثروا علىٰ شيء يدينه، ولا أحد يعلم علىٰ وجه الدقة نوع النشاط المشبوه الذي يمارسه.

رن الهاتف:

- أيوه يا فندم...

- قاعد في مكاني.

- لم يحضر بعد .

أحمد عبد العال (أبو أحمد)

أحيا حياة عادية في حي شعبي متواضع، أب لخمس بنات وولد صغير. عملي بجهة أمنية أفسح لي احتراما ومهابة بين المعارف والجيران، وتوجس بعض الناس، وأحيانا أشعر ببعض النفور يخفونه بود مصطنع .

قالت زوجتي ونحن جالسون في حديقة الفسطاط في ليلة قمرية، نتناول حبات البرتقال فيما يلهو الأطفال حولنا:

- إياك أن تظلم أحداً يا أبو أحمد .

- نجاحي هذه المرة مرهون ببقائي في مكاني والحصول على الترقية، ثم أردفت:

- نريد أن نزوج البنت الكبيرة...

بلهجة ريفية خالصة، عقبت:

- بدماء الغلابة؟

عندما كررت على سمعي نفس الحديث ذات مساء، انتفضت واقفا وركلت بقدمي أطباق الطعام من أمامي، وصحت فيها بأعلى صوتي:

- هل تظنيني المأمور يا امرأة؟

بعدصلاة العشاء في إحدى الليالي الصيفية، انفردت بالشيخصلاح إمام المسجد، أبديت له كل مخاوف زوجتي، سألته:

- حلال عملي أم حرام؟

فأجاب الشيخ الذي يعرفني معرفة وطيدة، حيث أني أداوم على صلاة الجمعة وبعض الصلوات المتفرقة بالجامع كلما سنحت ظروف عملي:

- إن علمت أن هذا الشخص أو ذاك مظلوما، أتستطيع عصيان الأمر؟

- لا...

وهو يستغفر ويحوقل:

- وهل تعلم بالفعل؟

- لا أعلم بالفعل.

- أم لا تريد أن تعلم؟

- لا أريد .

حدجني بنظرة متفحصة كأنه يراني لأول مرة، مساويا عمامته، ثم قال بلهجة تشي ببعض الريبة:

- هل تقوم بعملك وأنت مطمئن القلب؟

- نعم، لكني في بعض الأيام أستيقظ من نومي مفزوعا علىٰ كابوس أن عدة أشخاص يطوقوني بأجنحة سوداء حتىٰ تزهق روحي.

- هل تستطيع أن تجد عملا آخر؟

- أنا موظف ميري يا سيدنا الشيخ وستة أطفال في رقبتي.

وهو يعتدل في جلسته مستديرا، موليني ظهره:

- اتبع قلبك فلن يضلك.

- ولكن...

ذهب عني متمتما ببعض الأدعية، غادرته وأنا أنوء بحملي أكثر حتىٰ ندمت علىٰ مجيئي، فيما أشرق داخلي وجه الرئيس قائلا:

- فوزك بالثقة مرهون بنجاح المهمة.

حـام أبـو أحمـد حـول المنـزل بخطـوات لا مباليـة وقـد أحكـم نظرات كيلا يلفت انتباه المـارة المتسـللة نحـو البوابـة والشـرفة، دنـدن بأغنية قديمة وعبقت أنفاسه رائحة بخـور قريبـة، فتمتم وهـو يشـد مـن خطواته:

- ما أحلىٰ هذا الليل، وأروع تلك الليلة.

مصطفىٰ عبد الكريم

كـان الوقـت مسـاءً، عائـد لتـوي مـن ناحيـة ميـدان بـاب اللـوق بخطـوات لا اعوجـاج فيهـا، عقـب الزيـارة الشـهرية إلـىٰ بيـت حمـاي لرؤية أطفالي، سرت في الشوارع التي تمسح عنها بقايا ضجيج النهـار، هائما، أتأمل العمارات والناس مـن حـولي، أتسكع أمـام الفاترينـات، تداعت الذكريات...

- عشـرون عامـا مضـت بيـن الـوهم والأكاذيـب، أول مـرة تتـأبط ذراعي أيام الخطوبة الصافية، انتشيت بالكلام المعسول.

- « مصطفىٰ أنت كائن رائع ».

إلـىٰ أن أُجـبرت علـىٰ تـرك عملـي بأحـد شـركات القطـاع العـام بحجـة تـوفير النفقـات، وأنـا أتنقـل بـين عـدة وظـائف، حتـىٰ الكتابـة للمسرح، حلمي الكبير فشلت فيه

- «ماذا تأمل وأنت تربو علىٰ الأربعين مـن العمـر بـلا عمـل، بـلا هدف، حتىٰ خبر زواجها لم يحرك فيك ساكنا » .

- « أنت لا تصلح لشيء سوىٰ الفحولة»

- منذ متىٰ بدأت مشاعري في التحنط؟ كانت البداية منذ ثلاثة أعوام، اندلعت مظاهرة بالجامع الأزهر عقب صلاة الجمعة، لا أعرف سببا لها، قُبض علي ضمن المتظاهرين .

- «وعندما أخبرت الضابط بأنك حتىٰ لا تواظب علىٰ الصلاة...لم يسمعك أحد» مكثت في الحبس أربعة أيام مع طلبة جامعيين، أدباء، وأشخاص مميزين .

- تم عرضنا علىٰ النيابة التي أفرجت عنا بلا كفالة، وضحكتُ عندما سألت وكيل النيابة عن تهمتي، فأجابني باسما:

- إثارة الشغب وتكدير السلم العام.

ما تعلمته في الأيام الأربعة التي قضيتها في الحجز يفوق مجمل ما عرفته طوال حياتي. أدركت أني عاجز وفاشل لأن كل ما حولي يدعوني لذلك، أن الفرد لا يستطيع أن يحيا بمنأىٰ عن الأخر. أعجبتني كلماتهم بشدة، طلبت من رفقاء السجن آلا يتركوني نهبا لحياة تغرر بي، لا أستطيع فهمها وحدي، وقبلوا بعد الحاح مني أن يكون بيتي مقرا لاجتماعاتهم، نناقش فيها كل شيء، نبحث عن مخرج وبدائل ودور فيما يجري حولنا.

لم نتفق بعد علىٰ الإطار الذي نضع فيه تصوراتنا وأفكارنا، لكننا مستمرين في النقاش الجاد المثمر حتىٰ نصل إلىٰ رؤية واحدة ترىٰ النور.

- البلد ليست ملكا لأحد، بل ملك لنا جميعا .

هي كلمات موجزة، ولكني أشعر بأني أبدأ معها بداية طيبة مشرقة تنذر بعهد جديد، نشد الستر في الليل فأختفى في أحد الممرات المظلمة المواجهة للمنزل، أشعل لفافة تبغ، سرعان ما أطفأها عاملا بقول الرئيس:

- أتفه الأخطاء كفيلة بإفساد أكبر المهام.

كان الوقت تجاوز منتصف الليل بساعتين اتسعت عيناه عليه مقبلا من بعيد، أصدر الإشارة المطلوبة بمجرد أن اقترب عرفوه من مشيته المميزة كأنه يحجل. انتظروا حتى عبر بوابة المنزل، خرجوا من العطفات والأزقة الجانبية المحيطة، يدوسون الأسفلت المبرك بالمياه بأحذيتهم الميري، تجمعوا عند البوابة، تبادلوا نظرات خاطفة...

ثم اقتحموا المنزل.

السرادق

- «اهبط منها، فأنت لا تستحق البقاء فيها».

قرب منتصف الزقاق المفضي إلىٰ دكانته الضيقة، كان السرادق مُشيداً، ورائحة القهوة تعبق الجو، الليل مضاء فوق رؤوسنا بالمصابيح.

- «البقاء لله، وله في خلقه شئون» .

- لن تبقىٰ فيها دقيقة بعد الآن، كم جحدت اليد التي أطعمتك، والثوب الذي سترك، واللحم الذي كسا العظام، ما أجحدك!

اخترت مكاناً قصياً، داعبت أشجاني القديمة، فتذكرت كل الراحلين، تمايل رأسي منتشياً بالتلاوة، تصاعدت مني آهة مخزونة، مال نحوي أحد الجالسين بجواري، قائلاً:

- لم يكن يعرف أحد قدره...

أأنت من أقاربه؟!

- أنسيت لحظة أن اقترفت إحدىٰ حماقاتك التي كادت تودي بحياتك، والتجأت إلي، أخذلتك؟ ألم أحمك؟ وأهديك أسباب الحياة من جديد، وقد عفا الله عما سلف. لم أبخل، وأنت لم تستح، أهذه شيم الكرام؟

ارتمىٰ في صدري، دمعاته الحارة بللت وجهي وقميصي، داهمني صوته الأجش الجياش بالحزن:

- ذهب حبيبك وحبيبنا، لم يعد لنا أحدا بعده.

ضممته في حنو، وفناجين القهوة تصعد وتهبط في حركة بندولية رتيبة، والمقرئ يسترسل في آلية.

- أترك وصية؟

- بل ترك ما هو أثمن!

- وعندما طُردتُ من عملك، ألم أقف بجوارك، أعطيتك الدكان وملأته لك، لحظتها قلت لي:

- سأُدبر ثمنها عندما يتيسر الحال.

لم أرفض، وأنت تعلم أن الأحوال قد تغيرت، وشح الخير، ولم يعد الزمان زمان جود، لكني أبدا لا أنسىٰ وسطائي. فلماذا تسيء إلي، كلما مددت يدي بإحسان؟

نظرت للقناديل المدلاة كأقمار تسبح في السرادق، تطير وتحط أخيرا فوق رأسي، تحسستها براحة كفي، طلبت كوبًا من الماء، ورفضت فنجان القهوة الممدود، مضىٰ عني النادل في استياء.

رمقت أكبر الأبناء متكومًا فوق الكرسي، يحدق في ذهول، يداه تتكلمان بإشارات مبهمة، اقتربت منه، مددت يدي بالعزاء، ما أن رآني حتىٰ انتفض واقفا، وقد رُد إليه ثباته، قال لي:

- لم ينطق بشيء قبل رحيله غير اسمك، حتىٰ عندما علمت أنك تشيع عني ما ليس في، لتكتسب قروشًا قليلة لم أحزن؛ أعلم أنك ضعيف عجول، كم نصحني أتباعي بالتخلص منك أو إفساد

تجارتك، لكني لم أفعل، لم تعط الدم حقوقه، أحسبت أن عطفي عليك بلا حدود؟

حام حولي النادل واقترب بالصينية، نهرته:

- لا أريد قهوة.

دار حولي دورتين نحو الجالسين، ثم عاد إلي بإصرار، تصنعت الانشغال عنه بالإنصات للتلاوة، مد الصينية قرب وجهي، تجاهلته، رفع وجهي بإصبعه، احتقن الدم في عروقي، كدت أصفعه، لكن نظرته الثابتة أوقفتني، ألح بإيماءة...

حاولت الاستنجاد من وقاحته بالمعزين، لم أجد أحدا! نظرت للقناديل المدلاة، وجدتها انقلبت خفافيشا تطوف المكان متلاطمة، أخفضت رأسي، حاولت الانصراف، لم أجد منفذا للخروج، أشار للفنجان مرة أخرى، صرخت في وجهه:

- لا أريد، لن أشرب.

قهقه عاليا، ثم أخذ الفنجان وألقاه في جوفه دفعة واحدة فيما استرسل المقرئ في التلاوة.

السيل

لـم يـدم بقاؤنـا طـويلا بالمدينـة، تـدفقت عيـون السـماء غزيـرة بالدموع، ملأت البقاع والوديان، الشوارع والأرصفة، تسلقت البيـوت والحانـات، دخلـت المنـازل والمحـال، غمـرت الحجـرات والأفنيـة وفاضت.

انبعثت الشرارات من وهج الرعد، تلقفتها أعمـدة النـور، تـدانت أصوات استغاثات وانكسارات، انحشر الناس في الحافلات والسيارات والشرفات، هل حلت أهوال يوم القيامة؟!

من أعلىٰ الجبل نادىٰ الابن الضـال مهلـلا بالنجـاة، فأتـاه صـوت الأب مزلزلا:

- ما من عاصم اليوم من قضاءالله، لن تمنحك قمم الجبال والتلال الأمان، لن تفيدك المغارات والكهوف.

حمل الأب طفليه المبللين وشمر سرواله وعبر بهما نهر الطريق، آمنا لساحة منزله، جهزت الأم في فزع أمتعتها إيذانا بالرحيل. أخذت ترنو لأرجاء البيت، صمته المطبق، في حسرة. تتمعن في صور الأجداد تحتضن الجدران.

طفت جثة أحد الصبية بالقرب من صفوف الدكاكين المتراصة كشواهد قبور، تحلق النـاس مـن بعيـد، يحملقـون في هلـع، يخشـون

الاقـتراب، ينظـرون للعمـود الفضـي تـبرز أحشـاؤه، يشـتمون رائحـة الموت.

زعق أحد المجاذيب من فوق سطح عربة بضائع خشبية:

- جاء الطوفان يا أولاد الغواني.

بـرز سـور البحـر الإسـمنتي، بحافتـه العليـا في مدينـة الاسـكندر الأكبر، كطفل يهـم برأسـه في حـذر، يلهـو، يرقـب المـارة والحـافلات. تحوطه المياه من كل جانب. خمن الناس خلف شاشات التلفاز:

- يا ترىٰ في أي ناحية يربض البحر!

تتابعـت المشـاهد كلوحـات هزليـة، داميـة، كفقـرات في سـيرك، لأناس يعبرون فوق القوارب المطاطية وقطع الحجارة، الماء الذي كنا نستهين به، لا نعره التفاتا، صار كالوحش الأسطوري، تنين ينفث النار والصهد، كائناتهلامية بلا وجه، لها عشرات الأذرع، يحاصر القرىٰ، يغرق الزراعات والساحات، يلتهم في جوفه الناس والبيوت.

الماء الذي كان يتدفق من الصنبور أليفا طائعا، نشكله كيفما شئنا في أكواب وقوارير، مختلفة الأحجام والأشكال، وندلقه في أي مكـان؛ انقلـب جبـارا، ضـاريا، يثـأر، لا يخشـىٰ أحـدا، ولا يقـدر شـيء علـىٰ مجابهته والتصدي له.

بـدأت أسـراب المياه في التجمـع فـوق الجبـال والـتلال. تحشـد قواها، ترسم خطتها، تتأهب للانقضاض علىٰ السهول والأودية لتقتلع ما تبقىٰ من الأخضر واليابس.

- الطوفان قادم، من ينقذنا؟

مئات المهاجرين يسلكون دروبا تبدو آمنة، يبتغون النجاة، يتخوفون أن يبتلعهم التيه! اتجه النسّاك في الصوامع بالدعاء، الرهبان في الكنائس والأديرة بالصلوات، احتشد العامة والدهماء في الجوامع، يرفعون الأكف، يرجون اللطف والمغفرة!

بدأ شباب في التجمع والمشورة، نبذوا العصبية، وأدوا القبلية، نحوا الخلافات. يتوسطهم الصبية والأطفال في حميمية، أخذوا في الغناء بأصوات محببة رخيمة، مفعمة بالتفاؤل والأمل، أتوا بكميات ضخمة من الألواح الخشبية والعوارض والدكمات، الأوتاد والخوابير والمسامير الصلدة...

همس أحدهم مفصحا:

- لن تنقذنا سوىٰ سفينة نوح. وشرعوا في الغناء.

التماثيل

قلت: أكفر بالراحل والقادم وبالشوارع والميادين، وأكره كل التصاوير والبراويز، وبصقت صوب قرص الشمس المتدحرج من أقاصي الجنوب.

ردد أبي: ولد عاق.

قالت أمي: قد جن.

عرجت ناحية سور الأزبكية لا ألوي علىٰ شيء، وجه الأسفلت أينما رحت، عساكر المرور يقيدون حركتي، أنا الماضي نحو ما أريد وما لا أريد، مطحون بين الأسطح الخرسانية وأعمدة النور، زعقت:

- ما أحقر الراحلين.

- اخرس يا مأفون.

- هه؟ وتلفت حواليه.

فرأيته واقفا منتصبا طربوشه يلمع. يرنو في استعلاء، قلت:

- أهكذا وصل بك الحال، يحوطك الباعة والحواة بالأغاني القميئة، يدك في جيبك، أمعك نقود؟

برم شاربه في ضيق:

- ما أجحد الأحفاد.

قلت:

- يا جدي صار البلد ماخورا، ماذا صنعتم؟

أخذ يردد في عنفوان، هابطا من فوق قاعدته الرخامية، مخترقا دائرة العشب الأصفر النابتة حوله:

- يسقط الملك ويحيا الشعب.

سار من أمام سور الأوزبكية وأشار نحو الباعة المؤطرين سور الحديقة:

- بدلتم الكتب بالتحف والأنتيكات، أنتم التماثيل. قهقه عاليا رافعا ذقنه لأعلىٰ.

قلت، وأشعة الشمس تتساقط علىٰ وجهي فأنز عرقا:

- فلتسقط كل التماثيل.

- قف يا مأفون سأؤدبك.

بدأ يسرع خلفي، فمرقت عبر الشوارع والمحال، والضوضاء المنتصبة، مارا من شارع عدلي، واطئا ميدان طلعت حرب و...

- قف.

- من؟ و يا فتىٰ التفت.

قال وهو يضيق ما بين حاجبيه:

- كيف تجرأت علىٰ الأجداد يا ولد.

قلت ولهاثي يترجرج في صدري:

- يا جدي الخبير: راتب ضئيل وحلم قديم، وامرأة تشتهي السكن علي النيل... وأنا أخرسلالة الفراعنة لكني لست بفرعون، حل.

- أوووووووه.

- أسمعتم عن الصناديق المانحة؟

- ماذا؟!

- القروض الحسنة؟

- لا تتصنموا، تحركوا يا فتىٰ.

- لا تفلق رأسي بالمواعظ.

وأنا أبتعد شاخصا ببصري نحوه، قلت:

- اخل مكانك أفضل.

- انتظر...

وبدأ يهبط...

عدوت تتراكم في عيني الأخيلة والصور، تضغط علىٰ صدري الشوارع والأزقة، حتىٰ وجدتني ما بين أقدامه الغليظة عند طريق المطار، قلت:

- أنت كبيرهم... رمسيس العظيم، فلتخبرني عن الحقيقة.

هز ذقنه الطويلة ولم يجب.

- يا جد أحلامي محنطة وجثث الموتىٰ داخلي تزداد كل لحظة.

لم ينبس.

- نقبت فيُ كل الكتب وقرأت السير وتتبعت أخبار الفتوحات والغزوات، لم أعثر علىٰ شيء.

صمت.

- يا جد لم أعد أطيق، كيف طردتم الهكسوس؟

لم ينبس.

- ماذا تخفي في قبضتيك؟ أتستطيع أن تهش الذباب عن وجهك.

ورحت أبحث عن فأس لأحطمه. فانعقدت فوق جبينه تكشيرة كاللعنة، وقال وهو يقفز صوب الطريق ويتجه ناحيتي:

- تجرأت.

اندفعت تحت مظلة شمس حارقة بغير اتجاه وشعرت بأقدام ثقيلة من خلفي، وبالتفاته وجدت جموع التماثيل تثب من أماكنها كلما مررت بها وتتعقبني، صحت:

- كفوا عن ملاحقتي.

انتهيت إلىٰ كورنيش النيل، التقطت أنفاسي بصعوبة والنيل يتلألأ ذهبيا، جلست علىٰ أريكة حجرية، تتساقط حبات العرق المملح علي فمي، لفحتني هبات هواء رطبة فثقل رأسي من النور بسرعة مذهلة ورأيت الظلمة في هبوطها الوئيد. غفوت ساعة لا أكثر، أفقت علىٰ صوت ليس قويا لكنه حاد. وجدتني محاطا بالتماثيل، يشكلون دائرة تكتمل استدارتها بي، أبدانهم السوداء تلتمع بفعل الضوء الفضي المتساقط من القمر المرشوق بين اتساع البنايات، يحدجوني بنظرات صارمة، لا يحركون ساكنا، قلت:

- لم أفعل شيئا.

قالوا:

- سببت والديك وصفعت المدير وتحرشت بالشرطي.

- معذور.

- وخرجت عن نواميس أجدادك.

- معذور.

- وتجرأت.

قلت:

- لا أملك من أمري شيئا.

ومضت أعينهم الحجرية، قالوا:

- اهبط.

- ما أنا بهابط.

حاولت الخروج من الدائرة، ارتطمت بسيقان صلدة...

- اهبط.

- ما أنا بهابط.

كرروا الأمر للمرة الثالثة، خلعت ثيابي، وقلتها بأعلىٰ صوتي:

- فلتسقط كل التماثيل.

ونزلت.

المحاكمة

جللا. رفع القاضي المطرقة وأخفضها محدثا، اشرأبت الأعناق وتطلعت العيون من محاجرها، تجمدت الطيور في عنان السماء، وتساءل الجميع... متىٰ ينطق؟ متىٰ؟

الجموع تتوافد علىٰ قاعة المحكمة... ما بين أشخاص معممين، يرتدون القفاطين والجبب، يرتلون الأدعية والأناشيد، رهبان مع صلبانهم يترنمون بالأهازيج. وفتية يركضون في خفة ونشاط يتحدثون في الجوال، رهط من الناس في حلل سوداء، ورباطا عنق أنيقة ونظارات سوداء، يمتحون جانبا من القاعة، يراقبون ما يحدث في حذر. نسوة يتلحفن السواد يتقدمن، يتوسطن الجمع ويأخذن في النحيب بصوت مسموع، الأخبار تتوالىٰ والبرقيات تنهال من كل بقاع الأرض، متىٰ ينطق...متىٰ؟

أمي تبكي أمام صورة أخي الشهيد تحتضن ملابسه، تنام علىٰ سرير وتستيقظ مذعورة في منتصف الليل...وهي تهتف باسمه.

مازالت أوراقه علىٰ المكتب ونظارته الطبية، جهاز «اللاب توب» قلمه الرصاص، دعاء السفر، حقيبة جلدية نصف مفتوحة.

تمسك أمي وجهي بكلتا يديها وتتمتم:

- ما زلت أشتم رائحة أنفاسه فيك.

القاعة مزدحمة. النسوة الملتحفات بالسواد بدأن في العويل والأشخاص المعممون يبدلون أدعيتهم بغناء خفيف، رجال غلاظ أشداء بملامح خشنة وشوارب كثيفة متهدلة يطوقون القاعة بهراواتهم الخشبية ونصالهم المسنونة، يجوبون بنظراتهم الجامدة أرجاء القاعة، طفل صغير يسأل أباه وهو يمسك ذيل جلبابه المقلم الواسع

- متىٰ ينطق يا أبي، متىٰ؟

صور الأجداد معلقة علىٰ الحائط يعفرها التراب الناضح من الشروخ

أبي يقول:

المنزل قديم...لا بد من ترميمه.

أقول في شرود:

- البناء الجديد أفضل أم التنكيس؟

يقول مدرسي في الفصل وهو ينهال بعصاته علىٰ أحد التلاميذ:

- فات وقت الإصلاح .

وتتساءل أمي في خوف:

- البيت سيقع اليوم أم غدا؟

سؤال لا أجد له إجابة، القاعة مزدحمة الجو حار لا يطاق، الهمهات تسري بين الجمع، الهتافات تخمد حينا وتشتعل حينا آخر، أشخاص بسحنات أجنبية وعيون خضراء وزرقاء يدخلون القاعة في حذر، يحملون أجهزة تصوير، يمسكون بخرائط ملفوفة بعناية، ثم

يبدأون في فردها، الكل مشغول يترقب، يثبتون أعينهم علىٰ المنصة العالية الخالية، يقرأون اللافتة المعلقة خلفه

العدل أساس الملك وينتظرون أبي يقف وسط صالة المنزل، يرمق الشروخ التي تتسع يوما بعد يوم يحتار في طريقة الإصلاح وتوقيته يحيره تضارب رأي المختصين نصائح الأقارب ، مشورة الجيران، يخاف من سطوة صاحب البيت ونيته المبيتة يمسح التراب عن صور الأجداد. يقول لي وهو يتأهب لصلاة الفجر: جدك كان يملك جوادا في عصر صلاح الدين، وسيفا في عهد طارق...ترىٰ في أي عهد هذا؟ أما الآن الجمع يتزاحمون علىٰ الصحف والمجلات ووكالات الأنباء وقنوات التلفاز الموجودين داخل القاعة، الأحاديث والمقبلات، لغط وصياح وهمهمات وكلمات تتصاعد في نشوة محمومة، مع فلاشات أضواء الكاميرات، أحد المراسلين يشيح بيديه متسائلا في عصبية:

متىٰ سينطق؟

مقابر العائلة فسيحة

تقوم علي يمين المدخل دكة أسمنتية، تتسع لجلوسنا جميعا، أنا وأمي وأبي، تقول أمي بعينين أذبلتهما الدموع

- هل يضيع دم الشهيد؟

أقول وأنا أتذكر إحدىٰ قصائد صلاح عبد الصبور:

غدا يروي الأرض الجدباء، فتثمر نبتا طيبا تشتهيه الأنفس يحمل لنا فأل الطالع.

يغمرني المكان بعبقه ونشيحه الأبدي . استشعر أنفاسه

أقوم أنثر الخوص والزهور علىٰ قبره وأوزع «الرحمة» علىٰ النسوة والصبية المتزاحمين من حولي

تؤرقني كلمات أمي، «هل يضيع دم الشهيد؟»

تلازمني وساوس لا أفلح في قهرها

أتذكر لطفه وأدبه ومداعباته، وشجاره أيضا أتساءل

أترىٰ سنعرف طعم البهجة من بعده؟

رفع القاضي المطرقة خفت الضجيج

توقفت الحركة تماما داخل القاعة انطفأت أنوار الكاميرات تعلق الجميع بشفتيه

قالها بلهجة حازمة قاطعة

استمروا، استمروا ثم انصرف

فيما ترك القاعة في مشاحنات وتبادل . اتهامات وعراك لا ينتهي.

الرحلة

لدواعي السفر، تحتم علي استخراج بعض الأوراق الرسمية.

استغرقت الرحلة لهذا المكان القابع في أقاصي المدينة - يحده الخلاء من كل جانب - حوالي الساعة والنصف ساعة في عربة الميكروباص.

كانت القاعة مكتظة والجو خانقًا.

تراصت الطوابير.

نفذ صبري حتىٰ حان دوري.

قرأت في الجريدة '» طالعك اليوم» :

- تسافر إلىٰ بلاد بعيدة وتعود مُحملاً بالهدايا.

تبسم في وجهي الموظف، وقفت أتلقىٰ التعليمات في خشوع. أومأ لي برأسه، زحفت نحو الشباك حيث أومأ. طالعني وجه متجهم من خلف حاجز زجاجي، قال في نبرة كاهن في معبد وليس مجرد موظف:

- لا توجد بيانات لك لدينا!

- هه!

- لا اسم، لا هوية، لا شهادة ميلاد!

وقبل أن أنبس، أردف:

- خلل في الشبكة!

- والحل؟

أشار لي بالانتظار ثم اختفىٰ وسط الدهاليز القائمة بين المكاتب.

لمحته من بعيد يتبادل حديثاً خافتاً مع المدير القابع في حجرة زجاجية منفصلة، كأنه إله فرعوني، ثم ما لبثا أن التفتا نحوي فجأة، تصنعت الانشغال بقراءة الجريدة، وجب قلبي!

جلست علىٰ الأريكة الخشبية، أتطلع إلىٰ جموع الموظفين والسجلات الضخمة المفتوحة أمامهم، دواليب مكتظة، أجهزة كمبيوتر متناثرة، رائحة تراب مبلول تعبق الجو...

ذلك الفضاء الشحيح بالأهوية السخي بالرطوبة.

انتظرت طويلا مناداة إسمي بلا طائل.

تبادلت كلمات مقتضبة مع أحد الجالسين بجواري دون أن أعرف اسمه، سألني عن حاجتي، تلعثمت، لم أجد رداً! .

كأن ذاكرتي أضحت مثقوبة تتسرب منها الأشياء، قلت في تردد:

- استخراج هوية، بل شهادة ميلاد.

- أم جواز سفر؟

- جواز سفر.

تفحصني المدير بنظرة مدققة، ودعاني للجلوس، قلت في توجس:

- أتوجد مشكلة؟

قال في نبرة حاول أن تبدو عادية:

- الأمر بسيط، استيفاء بيانات لا أكثر، لكن عليك أولا استخراج شهادة ميلاد لنتأكد...

- ماذا!

- من هويتك...

غصتُ في نفسي، أردف:

- حتي يتيسر لك الخروج من المكان، واستكمال الأوراق الناقصة.

فغرت فاهي متأففًا، ملوحا بقبضتي في عصبية، لكنه امتص ثورتي بلهجة باردة محايدة:

- هذه هي قوانين المكان وتطبق حتىٰ علينا.

- وما العمل إذن؟

لحظات ويصل المحقق ليأخذ منك بعض المعلومات، ثم تبدأ اجراءاتك.

أبديت دهشتي وامتعاضي قائلاً في تهكم:

- محقق واستجواب، ماذا اقترفت؟

- لا تخف، مجرد احتياطات أمنية لا أكثر، وهي لحمايتك في المقام الأول.

ثم وهو يقلب في أوراق أمامه، متصنعًا الانشغال:

- لا تنس، أنت قدُمت إلينا بمحض اختيارك.

ماذا دهاني؟

كأنىٰ قضيت دهراً في هذا المكان، حتىٰ صار جزءًا مني وصرت جزءًا منه، مع أنني لم امكث فيه، سوىٰ بضع ساعات قليلة!

هذا الفضاء المغمور بالموظفين والسجلات يشعرني بالانقباض، بأنىٰ أبدا رحلة مجهولة متخليـًا عن حياتي السابقة، داهمني إحساس بالخوف والتورط، سارعت بالوقوف لأهمّ بالمغادرة... قدماي تسمرتا...

الأريكة الخشبية لا تتزحزح قيد أنملة رغم فركي عليها محاولاً الهرب وهج الأضواء البراقة ينبئ أن الليل قد زحف.

استسلمت لقدري مستقبلاً المجهول بصدر رحب.

التفت حولي، جموع الموظفين قد رحلوا، المكاتب خالية، الأبواب والنوافذ تبدو موصدة. لا صوت ينم عن أدنىٰ حركة في الخارج، وأنا ما زلت قابعـًا في مكاني أنتظر قدوم المحقق.

الضحك والحصار

آه... .

كم أحكموا حولك الحصار، وداستك أقدام الغبار وراودك عن نفسك ذلك الذي، يتأبط الصقيع، ويتجشأ الوقت، يعبر الشوارع الموحدة الاتجاه، ويقف علىٰ الطوار المقابل ويشير! كما راودك، وجئت من أول رسالة، وجلست بين يديه، وشكوت وظللت تشكو وهو ينصت، حتىٰ نضبت الشكوىٰ! آه... كم تعاقبت الفصول...

وفاجأك عند تناولك علبة الأقراص المهدئة. جلستما معا علىٰ المائدة، في المطبخ، تتناولان العشاء. يحكي أخر أخباره، يقص نوادره...

وتضحك، كما لم تضحك من قبل.

وتسعد بكما كل الصور المتوسدة الجدران.

صورة...

أنت وهو والأقران مصطفون في حوش المدرسة بزيكم الرمادي الباهت، وحقائبكم رابضة أسفل أقدامكم، والحديقة ترتفع أشجارها من خلفكم باسقة. والأستاذ» منعم » مدرس الحساب في المنتصف، منتصب القامة، بحلته الزرقاء الكالحة.

أما زلت تذكر الأستاذ» منعم» ؟

- أحببت، وأحب مثلك.

وقلت له، والنيل ينساب كتلال الفضة، يترنم بأهازيج شجية، كعزف ناي، يتهادىٰ من عصور سحيقة. يطل من خلف السور الحجري، كفارس يفتش عن جواد جامح، لينطلق من محبسه!

أما برق وسط كثافة الاشجار، قلت بالحرف الواحد:

- إن أحببت سيتغير العالم.

غرد عصفور...

وباتت العربات حولنا كالفراشات، تسبح فوق أديم الأسفلت. وباعة اللب والمشروبات، رغم سماجتهم طيبون. ونسمات صيف هبت ندية، رطبة بلا لزوجة، لفحت وجوهنا، فسعدت، والله سعدت من تلافيف قلبي. وددتُ احتضان الفنادق المضيئة رغم البعد، السامقة، رغم استعلائها.

حتىٰ ذلك الشرطي الواقف، يحصد الناس بالنظرات، يطلب الهويات، يمزقها ويطوحها في النهر! حتىٰ تطفلات المارة، والرصيف المتآكل...

كل ذلك لم أشعر به.

أحببت، لكن العالم لم يتغير! جئتني في السرادق...

وأنا متكوم فوق الكرسي، مهدم. المقرئ يرسل آياته فيرج صدري، ويبعث مواجعي. مددت يدك فلم أتمالك نفسي، ارتميت في أحضانك بكل قسوة...

وبكيت كما لم أبك من قبل. ربت علىٰ كتفي في حنو، وقلت لي:

- هون عليك.

آه...

كم أحكموا حولك الحصار...

لكني لحظة لم أغفل عنك

كلما فتحت كتابا أو نافدة،

أدرت مؤشر المذياع...

جلست على المقهى أرقب المارة يتحركون كالدمى، يتبادلون الأقنعة، ويصطدمون...

تذكرتك!

تشاجر اثنان في الحافلة بالأمس.

قذف السائق الراكب لما سأله عن سبب تغيير مساره، حطم نظارته الطبية.

رأيت الجمع يلتفون حول السائق، يمازحونه!

فبرقت في خاطري على الفور، بعينيك يلوح فيهما ذلك الغضب البكر...

ذلك الحزم البهيج.

لكنهم أحكموا حولك الحصار.

وفي ليلة زفافي...

وصلتني الهدية.

وقرأت كلماتك الرقيقة على الغلاف الأنيق المذهب:

- افرح قدر ما تستطيع.

وفرحت...

إن كنت لم أفقه قولك،

أخبرت زوجتي عنك، وظللت أمتدحك، أفضيتها رغبتي أن تأتي وتقيم معنا.

غضبت...

زمت شفتيها، لوت عنقها، ولم تمنحن نفسها،

إلا عندما أخبرتها أني أمزح...

تُصدق!

وكم كانت فاجعتي نافدة.

عندما جاء مولودي الأول بعد تسعة أشهر بالتمام، وانتظرت مجيئك...

أن تبرق لي من سفرك الذي لا ينتهي.

ولم تفعل.

ضبطتني زوجتي ذات يوم أبكي...

في ساعة متأخرة من الليل...

وصورتنا موضوعة أمامي. فعنفتني، وأخبرتني أن ذلك لا يليق، وأن ابني يحتار في أمري،

ويستنكر مسلكي هذا.

لكني يا أعز الأحباب لم استسلم...

أخفيتك في طي نفسي عنهم جميعا، مدعيا الإذعان لمشيئتهم. وليتصوروا أني أُسقطك في دوائر الزمن السوداء الطاحنة، وأني انفلتُ من سواقيك النيرة...

وعبيرك الفواح.

خدعتهم جميعا، وتذكرتك كلما خلوت بنفسي حتىٰ وأنا جالس معهم نتناول الغذاء أتأمل وجهك، طريقة إمساكك بالملعقة...

طريقة شربك الحساء، والسلطة الخضراء التي تبدأ بها الطعام.

وتمزح وأنا أرقبك.

تمزح وأنا أضحك وأفرح، وعندما يسألني ولدي:

- علىٰ أي شيء تضحك يا أبي؟

أقول له:

- يوما يا ستكبر وتعرف، وتذكره كما أذكره. وتضحك كلما تذكرته، تضحك كما لم تضحك من قبل.

الضيف

لم يطل تطلعي إليه، حتىٰ وجدته يُخلي مكانه ويجلس بجواري، حدثني عن نشأته البائسة، وظروفه الوعرة.

تأملت ملامح وجهه الخشنة، منابت ذقنه المزرية، وعينيه المحمرتين كأنه جني!

نظرة التذلل المسدلة علىٰ إهابه.

أخرج أوراقًا من جيب سترته الكاكية المهترئة، وأخذ يفندها ما بين تحاليل وأشعة...

- أعطوا لي هذا الرقم في المستشفىٰ الأميري.، عملية قسطرة، بالدور، كله بالدور يا باشا.

التقطت أنفاسي بصعوبة، وأنا ألعن حظي العاثر الذي اقتادني إلىٰ ذلك المقهىٰ، في تلك الساعة، مفضلها عن القبوع في دار النشر، أنتظر وصول المسؤول.

لم أطق البقاء هناك...

أحدس؛ رفض أم قبول الرواية.

لما لاحظ شرودي، انبرىٰ يُعلي من نبرة الاستجداء في صوته، وأعقبها بحكاية ظنها طريفة، عن مريض ظل يستعجل دوره، ثم مات أثناء التخدير...

- شيء مضحك.

بوجوم:

- ما المضحك في هذا!

أحنىٰ رأسه خجلاً، فلم أجد بداً، من مواساته ببعض كلمات موائمة:

- أعانك الله، لا تبتئس، فرحمته بلا حدود.

وأخذت أخمن الخطوة التالية بعد هذا السرد المؤلم. إما أن يبادر بطلب المساعدة، أو أعرضها أنا.

واصل كأنما يحدث نفسه:

- حباني الله بزوجة، وخمسة أطفال، ثلاثة معوقين، أما الباقي...

- كفىٰ بالله عليك...

وهو يهز رأسه كالمصدوم:

- أعلم أن للفقر رائحة منفرة، لكن...

لمعت عيناه فجأة، لما لمح الجريدة المطوية علىٰ الطاولة أمامي...

- تسمح.

ولما اعتراني الفضول، قال:

- لا تستغرب، فأنا أجيد القراءة والكتابة، كنت قارئـًا متمرسـًا، للمنفلوطي، وشوقي بك، وللسياسيين الكبار، أمثال التابعي وغيره، لا يغرك مظهري الأن، فهذا حكم الزمن!

فتح الجريدة، وبدأ يقلبها باهتمام وشغف، يقرأ بصوت مسموع، الأخبار والمقالات بتلذذ مريب!

ألجمتني الدهشة، فالرجل ليس كما يبدو،

يا لها من مصادفة.

طلبت له شاياً وطعاماً من عربة تجاور المقهىٰ، التهمها في نهم.

- وحضرتك بالطبع من الأعيان؟

قهقهت عالياً، فمظهري البسيط لا يخطئه أحد.

- لماذا؟

- أراك رائق البال، تحدق نحو المارة بشرود، تتكلم مع نفسك بصوت مسموع!

باعتزاز:

- أنا كاتب...

- شعر أم قصة قصيرة؟

- هه...

نطقتها متوجساً من سلوك الرجل، والجنوح المباغت في شخصيته وكلامه.

هازئـًا:

- أتعرف الفرق؟

- بالطبع، الشاعر بلا قيد، أما القصاص فيحتاج...

مقاطعا:

- متعلم؟

- الشهادات لا تهم.

ثم سحب نفسا عميقا، وزفره بتأسي:

- دبلوم.

بسأم من يود انهاء المحادثة:

- روائي.

تهلل وجهه:

كم تمنيت أن أقابل كاتبـًا روائيـًا.

- لما!

- لأعرف سر الصنعة، بالتأكيد خضت تجاربـًا مضنية، واحتككت بالعالم السفلي، عالم المقهورين والمهمشين أمثالي.

اتسعت عيناي اعجابـًا بالرجل، وازددتُ حذراً. لا أعلم لماذا برق وجه صاحب دور النشر في مخيلتي! فبعد إضافة بعض الرتوش، وإزالة بعض التشوهات، يكادا أن يتطابقا في الشبه لحدٍ مخيف!

- ليس شرطـًا، فالكتابة غوص في طبيعة الإنسان بداية.

مبديـًا امتعاضه، وبثقة لا تتناسب مع هيئته:

- هراء يا سيدي، لا فن بغير واقع، ولا قيمة لعمل بلا صدق.

وهو يزوي ما بين عينيه كمحقق:

- ما هو موضوع الرواية؟

اعتدلت في جلستي، واضعـًا ساقـًا فوق الأخرىٰ:

- الوهم والحقيقة في... .

- معذرة، وهل يوجد فرق!

بنبرة خشنة:

- كيف تعرف كل هذا؟

سرعان ما بدل لهجته، وقال في خنوع:

- أتستكثر علىٰ مثلي، الفهم والثقافة، أليس العقاد...

مقاطعـًا:

- وتعرف العقاد أيضـًا!

- كيف تكتب، سامحني، وأنت تجهـل خصـائص النـاس؟ أكيـد لم تنشر شيئًا حتىٰ الأن.

استشطت غضبـًا، حتىٰ كدت أركله بعيداً، لكني تمالكتُ نفسي، ببرود:

- أنت أعلم.

- آسف لو تجاوزت حدودي...

رددت بزهو، وبلكنة إعلامية:

- عمومـًا، لي رواية، ستصدُر قريبـًا.

- لا أظن...

- ماذا قلت؟

- من أنت؟ لما ظهرت بغتة، واخترتني بالذات، دون جميع رواد المقهىٰ، من أوعز لك بتلك الكلمات، ألك علاقة بدور النشر، أتعمل بها؟

وقبضته من عنق سترته، وكدت أخنقه، حتىٰ تحشرج صوته، متوسلاً لي أن أتركه.

- هل أرسلك الناقد والكاتب الفاشل الذي يروّج لنفسه بالحطّ من قدري، وينعتني بأني جاهل وغبي، هل أنا غبي؟

- معاذ الله، أنت سيد الناس.

لما أفّلتُه، ترجّل متعثراً، يتلفت نحوي في ذعر، حتىٰ استقر علىٰ أحد المقاعد المنزوية، وطفق يحكي... .

فيما بدت كل الطاولات خاوية!

الزائر

عندما هلّ أول مرة، حسبته صاحب حاجة، يود قضاءها، فكدت أنهره، لكن ابتسامته الواثقة أوقفتني!

قلبت خزانة ذاكرتي رأسا علىٰ عقب، فلم أعثر علىٰ شيء.

عزمت علىٰ الخروج من شرنقة حيرتي، فملامحه تبدو مألوفة.

زارني كعادته في عملي، وألقىٰ تحيته الودودة. وهو يرتشف الشاي، سألتُه عن سبب مجيئه:

- هل تقابلنا من قبل؟

انفرجت اسارير وجهه المنحوت بفعل تجاعيد الزمن، ودق الأرض بعصاته التي يتوكأ عليها، عدة دقات خفيفة، ثم بنبرة معاتبة:

- أنسيت؟

- عفوا، كلنا غرقىٰ في دوامات الحياة.

ندت عنه تنهيدة طويلة:

- ألا تتذكر قهوة ريحان، شادر السمك، جلسات العصاري قبالة مسجد سيدي المرسي أبو العباس.

- هه!

- كنا نلعب النرد، وأنت تحتسي مشروب الشوكولاتة.

فغرت فاهي في دهشة، فابتسم:

- معذور، فقد كنت صغيراً.

- ألا يمكن أن تفسر.

- أنا صديق والدك، عمك» أبو العزم»، يا لك من ناكر للجميل، أنسيت عمك يا ولد، الذي طالما اشترىٰ لك الحلوىٰ، وأركبك المراجيح، خلف باحة المسجد أيام المولد...

ألا تتذكر أيام المولد!

ثم سحب نفساً عميقاً، وزفره في بطء:

- ياااه، زمن، كنت أحملك علىٰ ظهري، وأغطس بك في بحري، فأقب في الأنفوشي.

وأغرق في الضحك حتىٰ بانت أسنانه المثرمة، وسعل سعالاً شديداً.

احتقن الدم في وجهي، وشعرت بالإهانة من لهجته المفعمة بالسخرية، لكنه باغتني:

- كيف حال أمك؟

- توفت منذ ثلاث سنوات.

- إيه، كانت ملاكاً، كم تمنت أن تصبح قبطاناً ذو شأن، يتحاكىٰ عنك أهل بحري، لكن يا للأسف...

دب في قلبي خاطر فجأة، بأن الرجل محتال، ينسج خيوطه حولي بإتقان.

فقلت في خبث:

- صديق أبي، أظن تعرف بالتأكيد سبب موته.

امتعضت ملامحه، وكستها الكآبة، مسح رأسه براحة كفه:

- آه، مات محسورا، وحيدا في... .

واغرورقت عيناه المضببتان، فمسحهما بظهر يده المعروقة.

- أيها الكاذب المراوغ، أبي وافته المنية إثر إصابته بالداء اللعين.

بلهجة هادئة:

- ما زلت متهوراً، تشتاط غضباً، طالما عنّفك أبوك، ونهرتك أمك عن ذلك.

انتفضت واقفًا، وصحتُ في وجهه:

- لا تأت هنا مرة أخرىٰ.

- اهدأ يا... .

- لست أنا، «قاطعته صارخًا بصوت مشروخ» .

قهقه عاليا، ثم اختفىٰ في لمح البصر، كأنه لم يكن موجودا!

أصداء الظلال

لا أستطيع التكهن بعددهم، لكني أكاد أن أجزم بأنهم لا يقلون عن أربعة أو خمسة!

أشعر بثقل خطاهم، لفح أنفاسهم الحرّة، فلا أملك سوىٰ الاختباء!

قلبت خزانة رأسي، ونقبّت في حوادث الماضي، بلا جدوىٰ.

أخبرني بواب المنزل بأنهم يبيتون أسفل مصباح الشارع المطفأ طوال الليل، حتىٰ يهل الصباح.

وعندما عنفته لتقاعسه عن توبيخهم وطردهم، رد في خشونة:

- افعلها أنت؟

وأخذت أخمن...

هل هم أعوان أخي، الذي لم يتوانىٰ عن ابلاغي استياءه من أفكاري ومعتقداتي المخالفة لنواميس حياته؟

وقفز وعيّده في مخيلتي:

- غيّر من نفسك وإلا تركت نهباً لهم.

فصرخت - حينذاك - في وجهه:

- لن ينصلح حال هذا الماخور إلا بهدمه.

أم يكون صاحب العقار، الذي لا زال يهدد بإيذائي، إن لم أتنازل عن الشقة طواعية.

وفي إحدىٰ الصباحات الباكرة، وأنا أتابع نشاطي الأدبي في جريدة الحقيقة، رأيت رهطـًا في أخر القاعة، يتخافتون سرا ورؤوسهم متلاصقة، وحين التفتوا لي بغتة، وجب قلبي، واعترتني الدهشة، فأشرت نحوهم:

- هم! نعم هم!

وانتفضت هاربًا.

ولكن، كيف اخترقوا حواجز الأمن، بإجراءاته المشددة؟

المؤامرة أكبر من تصوري الساذج، ومن قدرتي الواهنة علىٰ التصدي لانتشارهم الدؤوب.

لفظتني حافلة إلىٰ مقهىٰ بالسيدة زينب. تجرعت الشاي كعادتي. أمصصت أنفاس المعسل في شراهة، وزفرت غبار الهلع والخوف.

حدجني النادل بنظرة ذات مغزىٰ، فالتفت نحو طرف عينيه المدبب. رأيتهم يندسون في الزحام، ساعة الذروة، ثم يهلون في موجات متتابعة، يتنكرون في أردية شتىٰ، عمال نظافة، طلبة مدارس، موظفين، باعة، عساكر مرور... .

دفعت الحساب في عجالة، وترجلّت مذعوراً، أتعثر في ظلي!

لم يبق لي مكانـًا...

دقق الضابط في بتوجس، قائلاً:

- أوصافهم تنطبق علىٰ الجميع!

بتوسل:

- نجاتي علىٰ المحك.

رد ببرود:

- يتعقبونك منذ زمن، هل أذوك؟!

- وهل أنتظر.... .

وهو يغلق دفتره:

- عموما، سنقوم بواجبنا.

أتأمل صورة الأجداد فوق الجدار المشروخ، علىٰ بصيص ضوء متسرب من خصاص شيش النافذة المغلق.

يشرق وجه أبي، وهو يتبوأ مقعده بين أرفف مكتبته الزاخرة بعلوم الفقه والفلسفة والتاريخ والسّير، بلحيته الكثة المشذبة بعناية، محذراً:

- يا ولدي، لا عدد لهم ولا حصر، يظهرون في جدب الأزمنة، يتخفّون ويتمازجون، حتىٰ يُأذن لهم، فيبتدأون عملهم بكل صرامة وقسوة، حتىٰ تدين لهم أنحاء المعمورة بالولاء!

- هل هم من أبناء جلّدتنا يا أبي؟

أحنىٰ رأسه في صمت. رقبت شروخ المنزل، تزداد اتساعًا، فتحيرت:

- «من سيقع أولاً، نحن أم المنزل؟» .

قال الضابط في حزم:

- لا أحد يتعقبك.

- لكن...

- استشر طبيباً، ولا ضير في ذلك.

- والبلاغ؟

- حُفظ لعدم الجدية!

- «كل أفراد الأمن بعرباتهم وأسلحتهم وذخائرهم، الخوذات والدروع، والكمائن، كل المخبرين السريين، لن يقدروا علىٰ حمايتك، إن أردنا إصابتك بسوء!» .

صاح بها مجذوب، فتعقبته، وهو يتسربل في جلبابه الرث، لكن سرعان ما اندثر كالوهم بين عباب الخلق المتدفق.

آه...

رأسي يكاد ينشق نصفين، يتجاذبان ويتقاتلان بشدة، فيتعالىٰ في داخلي نعيق البوم والغربان.

أتناول العقاقير المهدئة، لأتعافىٰ:

- «في الأغلب، هي خيالات تنبعث من نفس قتلها الجمود والرتابة، والفزع من كل شيء» .

هكذا شخّص الطبيب حالتي.

- هل سأُشفىٰ؟

- الأمر مرهوناً بإرادتك.

في هذا اليوم... .

لاحقوني منذ هبوطي...

بـدأوا في التكـاثر، كأنمـا يجـاهرون بـدعواهم. تعلقـت بحافلـه لأصل لمقر عملي.

سرعان ما أحاطوا مكتبي، وسدوا منافذ الخروج.ملامحهم بدأت في التوحش، وطنين مخيف يصدر عنهم...

هل قد حان الوقت؟

ناورت وهربت من سلم الطـوارئ، تخمـش العتمـة وجهـي، بـان عرجي، فكدت أنكفأ!

لُذت بالمسجد، ملجأي الأخير...

أنصـت للـتلاوة في خشـوع، علهـا تمـس شـغاف قلبـي، فـأبرأ مـن عللي. راعني لكّنتها الغريبة، المُحرفة!

فانتبهت...

كانوا يحتلون الصفوف الأولىٰ، بلحاهم الكثة. لمحوني، سرعان مـا فـردوا عبـاءاتهم القاتمـة، وكـادوا يطبقـون علـي أنفاسـي، لـولا أن عاجلتهم باللكز والفرار!

- «يحاولون الايقاع بي» ...

- « لكن هيهات» ...

أيقنت بأن المؤامرة تتسع، الطبيب، الضابط، حتىٰ إمـام الجـامع، الجميع بلا استثناء!

جُبت الشوارع كالمجنون، أبحثُ عن غوث.

حتىٰ أنهكني التجوال، فارتكنت إلىٰ حديقة قديمة، اقتعدت أريكة، لألتقط أنفاسي اللاهثة.

أحكم الليل سدوله...

حاصرتني دوائرهم. أزيز حاد مخيف اجتاحني، ونفذ في مسامي بتؤدة وإصرار.

هيئاتهم آخذة في التحول بسرعة مخيفة،

وأسرابهم لا تكف عن التتابع.

أدركت بأني هالك لا محالة.

غمرني فيض جارف، كأنه نور ونار معـًا، وشيشٌ طغىٰ علىٰ حواسي، شوش أفكاري، فمزقت هوياتي كلها، وتلوت وراءهم في خشوع، تراتيلاً لا أفقها، حتىٰ غلبني النعاس...

لم أدر كم مضىٰ من الوقت؟

منذ أن رحلوا... .

لكني إلىٰ الآن لا زلتُ أردد القسم!

الحادي

رغم فشل محاولاته السابقة، لكنه لم يعبأ، وأخذ يهزها بعنف، حتىٰ أنهكه التعب، فتمدد عاقدا يديه خلف رأسه، مُحدقا إلىٰ السقف العاري.

كان متميزا عن أقرانه بطوله الفارع وشعره المجعد، كانوا يلقبونه بالحارس لهلّته المثيرة للفزع والدهشة...

قال أبوه:

- الحارس هو من يدفع الأذىٰ ويذود عن عرينه، الملاذ الأخير حين تهب الأعاصير. يحتفظ دوما بنقاء سريرته وجلاء فطرته، حتىٰ لو غامت الفصول وتعاقب الليل والنهار بغير اكتراث، وتعب الناس وصار الكلام هزلا والهزل كلاما.

رد في حماس:

- كالأسد.

أومأ برأسه بالإيجاب، أعجبته كلمات أبيه واستقرت في قرارة نفسه.

- لمَ تحبسها؟
- أخشاها...
- أرأيت منها ما يسوء.
- لن أنتظر وقوعه.

- اطلق سراحها، تتحرر روحك!

ومضت كلمات معلمه كالبرق في ظلمات جوفه، فغمرت روحه بسحب النور والطمأنينة.

حين اندفع الجمع غاضبا، ينشرون الفزع والرعب، يثيرون الغبار واللهب في أقدامهم، انكمش الرعاة ولاذ الفتيان بالفرار. اعتصم عوام الناس بأعلىٰ الجبل، واختبأ الرماة، تلفت حوله فلم يجد أحدا، زحفهم يقتل اليابس ويمحو الشجر.

أبصرها عن قرب، يأسرونها مقيدة، انتصب واقفا، خيره الجمع بينه وبينها، أمسك عصاته المجدورة في كبرياء وأدارها في زهو مستعدا للقتال.

- لم تتغلغل في نفسي كلما كبرت، كأني ولدت بها. «تساءل» .

- «موتك في موتها»!

من صاح بهذه العبارة وأنا ألج حي الجمالية المكتظ باللغط والصخب؟ أراقب الصبية وهم يتقاذفون الكرة، يركلونها بأرجلهم في كل اتجاه، وتظل تتعارك مع أقدامهم حتىٰ تدخل عبر إحدىٰ الأقدام إلىٰ المرمىٰ المفتوح، فيهلل الجميع وتغشىٰ البهجة الوجوه والنفوس، أما هي فيأتون بها ويعاودون نفس الكرّة!

زحفوا إليه متدثرين بالظلمة والصمت.

لم يشعر بوجودهم لأول وهلة...

حتىٰ أيقظه صوت ارتطامهم بدلو ممتلئ بالمياه.

هب من مرقده بجذعه الأعلىٰ، نفض عنه دفء الفراش، أدخل قدميه بحذر في خفه البني، أحكم ربط عمامته، امتشق عصاته، فتح الباب بغتة، فصعقتهم المفاجأة، تحركوا ببطء في مجابهته، بدوا أربعة أشخاص أو خمسة...

باب الغرفة من وراءه مفتوح،ظلالهم منبسطة أمامه، خلفهم سور حجري

يحجز عتمة لا قرار لها...

لمحها تزحف ببطء صوب بئر السلم هاربة، في نفس اللحظة التي كان يتأهب فيها للنزال.

يوميات وطن

عرقه الغزير لم يمنعه من استقبال ضوء النهار، أزاح الأغطية، سحب قدمين دافئتين فوق بلاط الأرضية البارد، فتح الصنبور، حبات الماء فتت عظام وجهه، توضأ، شك في قراءته الفاتحة في الركعة الثانية، الشقة ترفل في سكون خاص.، في عتمة البهو، تتصدر لوحة متخمة الألوان: تنم عن فارس يمتطي جواداً شاهق البياض، ويشهر سيفًا رماديًا، يثب صوب قمر فضي.

يبرز في الخلفية، نخيل باسق متناهي الصغر، يذوب في ضوء شفقي.

بالأسفل، ينهض خوان خشبي، تستقر فوقه خوذة محارب قديم، مقلوبة، تمتلئ بأعقاب السجائر! كان الصيد هوايته منذ الصغر.

يسحب بندقيته، ويتربص بالعصافير المختبئة بين الأغصان، يتحين لحظة غفلة، ثم يحكم تصويبه، فتسقط الفريسة مضمخة في دماها. سرعان ما يضعها في مقطفه، ويقفل راجعا.

وإن فرت، أعاد الكرة، ارتدىٰ هدمته في عجل، يترك شعره منفوشا، أبصر في المرآة، قامة فارعة كالتذكار، عظاما بارزة تشكل وجهًا منحوتًا، عينين منطفئتين، ثمة تعبير ثابت مرتسم.

قبل أن يغادر، تحسس أثار شظية في الكتف، رمق صورة الموناليزا بإطارها المشطوف، تقبع بجوارها صورة أمه، كانت تبتسم!

منذ الوفاة، صارت أحلامه مؤجلة، عباب الحياة الرتيبة يكاد يزهق أنفاسه.

نومه لا يسلم من الكوابيس. أمواج عاتية تضرب في بحر مظلم، يحاول أن يتلمس طوق نجاة يراوغه، حتىٰ يقوم مفزوعا، يتلمس وجه أمه، وجوه رفاقه في الحرب، فلا يجد غير الخواء وصوت المنشد، وأشلاء متناثرة!

جر قدميه عبر السلم، بعينين منتفختين استقبل ضوء الصبح الحاد، ألقىٰ التحية علىٰ البواب،

رد دون أن يلتفت.

التف حول عربة الفول، أكل في نهم، سعل مع أول نفس من لفافة التبغ، حتىٰ دمعت عيناه، فبصق.

ولم يكترث إلىٰ زعيق البائع لما حاول استبدال ورقة النقود المهترئة، ابتسم بلا سبب.

كان مسترسلا في الحكي عن ذكريات طفولته، فزعقت مقطبة:

- ألم تزهق من حكاويها؟

هبت واقفة، وألقت الخاتم فوق المنضدة، فسقط في فنجان القهوة الذي لم يتذوقه بعد!

نظر حوله في وجوم، النيل سادر، وكأنه لا يعبأ، لا يود أن ينطق، أن يبوح بأسراره، بالحقيقة، حقيقة الفريضة الغائبة! وكأن صوت نواقير سفن قادمة انطلقت بغتة هادرة، أسراب عصافير هائلة برزت

من مخابئها وهربت مذعورة، أحس بغصة، تذكر نصيحة الأهل والأقارب، بعد انقضاء الحرب.

- جد امرأة تستجلب الدفء لفراشك.

اشترىٰ الجريدة، وطواها تحت إبطه.

لمح الحافلة فوثب. برز المبنىٰ الأصفر الشاحب كالصنم، انتظر تهدئة السائق، تذكر التقريظ اليومي للمدير، فقفز، هوىٰ مرتطماً بحافة الرصيف، جلس يمسح التراب عن جبهته،

شعر بنغزة...

غامت عيناه، في وهج الشمس، تراءت الموناليزا تبتسم، والفارس يخوض طليقا: «بندقية علىٰ كتفه، وخريطة ممزقة في يده»

تقافزت الطيور في هرج، ظل الفارس يركض ويركض، حتىٰ شارف دائرة من الظل، بمرور الوقت، امتد الظل أكثر وأكثر، حتىٰ لامس طرف الجريدة اليومية المفرودة.

حادث

التفوا حوله، فور هبوطه من الحافلة. مازحوه في البداية، ثم ما لبثوا أن أخرجوا مدّياتهم، وشهروها في وجهه، نظر حواليه، الزحام شديد، ما بين باعة جائلين، يفردون بضاعتهم في ضجر. رهط يتحلقون عربة فول، يلتهمون في نهم. مارة يتكدسون علىٰ فاترينات المحال، ويتثائبون. أخرون ينتظرون الحافلة، تحت المظلة.

استنجد بهم، وكأنهم لا يرونه...

راودته الشكوك في حقيقة ما يجري! أهو ديكور عمل سينمائي ضخم، وما يحدث جزء من المشهد؟!

بالتأكيد إنه فيلم 'أكشن' وإثارة.

أحد العابرين نصحه بالتوجه للمخفر قبل استفحال الأمر. عجوز أوصاه بالانصياع وإعطاءهم ما يريدون، فالحكمة واجبة. وبخته امرأة مسنة - وهي تتوكأ علىٰ عكازها - لتقاعسه وجبّنه، قائلة:

- هم ثُلّة من الأوغاد لا أكثر، شباب سخروا منه، وهم يجرون الخطىٰ للحاق بسيارة أجرة...

حتىٰ المقهىٰ المقابل، رواده طفقوا يشاهدونه في غير اكتراث - وهم يدخنون النارجيلة ويلعبون النرد في تأفف، فيما زعق النادل يحذر الجميع من الاقتراب!

شعر بأن اللقطة طالت أكثر مما ينبغي. عل المُخرج يظهر أخيراً، وكذلك مدير التصوير. وأخذ يخمن أماكن الكاميرات المنصوبة في تحير:

- «يا لهم من بارعين في اخفاءها ليبدو الكادر واقعياً، هذه بحق سمات الحداثة الجديدة» .

نفير أبواق العربات المتكالبة أضفىٰ تأثيراً خاصاً علىٰ الأحداث، انتبه إلىٰ كبيرهم يأمره بخلع ملابسه في لهجة خشنة، وإفراغ ما في جيوبه علىٰ الأرض. انبهر بتقمصه الشخصية لهذا الحد، ولكن تحفظ علىٰ مسألة خلع الملابس، وكزه أحدهم في كتفه بظهر المدّية، يستحثه، فصرخ من شدة الألم...

زأر في وجوههم، محتجاً علىٰ السيناريو، مطالبا بتعديله. تململ كبيرهم، فغزه في ساقه، فانبجس الدم في غزارة، فصرخ، يجأر:

- هذا إجرام، أوقفوا التصوير! الْتَمَّ بعض السَّيَّارَة، يتفرجون دون تدخل، يتأهبون بكاميرات هواتفهم الخلوية للتوثيق، تعجب، وأخذ يحدث نفسه بصوت مسموع:

- أكل هؤلاء كومبارس...

لما زحف علىٰ بطنه، الدماء تغمر وجهه، وتنبثق من عنقه، يتشربها الأسفلت، وأنفاسه تتحشرج في صدره، كان أخر ما برق في ذهنه، قبل أن يفقد الوعي:

- يا ترىٰ متىٰ سيظهر المُخرج؟

الناسك

صوت الآذان، يتسلل في غبشة الفجر، دبابير الوقت اقتحمت النافذة، فشب الحريق في ذاكرة ناعسة. انسللتُ من صحائف الماضي، الأبواب موصدة! الدركي خطوته الثقيلة تمحو دقات الزمن، وتعرج في درج الروح. أحاول المروق بين حواف مسنونة، أتلصص على حقول ملغومة كأسطورة تنزع رداء القداسة، وتتمرغ في أوحال الممكن، انفتحت كوة، انبجس رواق مبلط بحجر مصقول، يقود إلى بهو واسع انفرج بغتة، جلست بجوار غرباء، أنتظر.

حدقنا بوجوه شمعية نحو عقارب ساعة تتوسد حائط موغل في القدم، رطوبة تنشع، ولبلاب يجثم على صدره. تنامى صوت قنديل واجف يتمطع، طير يتثاءب، تجشأنا أغبرة قديمة، وكأن أعيننا محشوة بصور ثابتة لا تتزعزع!

هنيهات قليلة...

ثم تقاطروا ببزات رسمية، ونياشين تبرق، شملات قاتمة تقبض أعناقهم. فردوا وثائقَ وخرائطً ملونة، حتى بدأت المناداة!

تحركنا كالعميان، صافونا صفـًا صفـًا، أعطوا كلاً منا ديناراً » صُك بوجه الملك، وقالوا:

- اهتفوا

فهتفنا:

- زنديق، كافر...

- أضلنا بكلمات لا تسمن ولا...

مزقوا هويّاتنا المهترئة، وختموا بالنفط شهادات ميلاد جديدة، ارتفعت المطرقة، انتفضت المنصة وأشارت نحونا بعدما فرغنا، خاطبتنا بصوت ثقيل صلب:

- ألم ننهكم عن العالمين؟!

فصرخنا:

- نحن الشهود، نحن الشهود.

واجتاحتنا نوبة بكاء، غافلنا الدركي، فتأرجحت المشانق علىٰ جذع شجرة باسطة كفيها نحو ال...

فاض النهر بالدم، تتابعت جموع غفيرة ترفل في خرق بالية، تتدثر بأفاعي الصمت، انتحبت... ثم، ثم طفقوا ينتظرون!»

إهداء: للشاعر الكبير صلاح عبد الصبور.

سِبَاق

كان يركض ويركض، تلهث أنفاسه، ينزف عرقًا مملحًا دون أن يدري السبب! لكنه موقن تمامًا بأن عليه أن يركض ويركض، وأن التوقف يفقده حياته، شيئًا ضخمًا لا يمكن تعويضه، استرداده، ولا يفقه كنهه؛ لذا فهو يركض!

لم يجد أثراً، علامة يهتدي بهما، بشراً يسأله، يرشده، وكأنه درب بغير انتهاء، حلم مسافر، لن يفيق منه أبداً، وتساءل بدهشة:

- أهو حقًا حلم؟

ربما، من يدري...

واعز خفي طاغي يأمره بالعدو ويحذره:

- إياك والنظر وراءك...

تضاءلت البنايات وتماوجت على الجانبين، نوافذ فارغة إلا من أطر ملونة، فراغها تحتله، هياكل تبدو كالآدميين، جامدة لا تتحرك. أصنام محدقة بعيون زجاجية تلمع، وترسل بريقًا حاداً، يومض في عينيه، فيصيبه عمى مؤقت...

تتعثر خطاه، ويكاد أن ينكفئ

مواء قطة أخرجته من حيرته، تقافزت حوله، فأشعرته بالمؤانسة، لا شيء يبدو منطقيًا... لا شيء حقيقي سوى إنه يعدو ويعدو!

توقف إثر حركة خلفه، جاوزته قافلة جنود تتأهب لمعركة ما، يصقلون خوذاتهم، يشحذون نصالهم، يعمِّرون بنادقهم في آلية، يرصدون بالمناظير الأجواء المرتقبة، ثم يفردون الخرائط، يؤشرون بدوائر حمراء حول الأهداف المرجوة، ثم سرعان ما غادروا!

استأنف الجري، عله يفهم ما غمض، عند منصة النهاية.

سُحب قاتمة تظلل المكان، وتشيع رائحة مطر في الجو، لمح شرطيًا عند المفارق، بحلة غامقة، مرصعة بأزرار نحاسية. ما أن شرع في إبراز هويته، حتىٰ أومأ له بابتسامة مشجعة، تحثه علىٰ الاستمرار.

تابع المسيرة، رأىٰ فيما يرىٰ الناعس، أبويه يتجولان أمام فاترينات براقة، يتأملان معروضات خلابة، يتشبث مع أخويه بأطراف فستان الأم، فتهشم في رفق. ما أن يعبرون الشارع؛ حتىٰ يندلق الموت كالشهب.

تُسدل الستائر، وينطفئ الضوء رويداً رويداً، ثم تحل العتمة!

خاض أكوامًا من الركام، فتناثرت حول أقدامه دُمىٰ مبتورة الأطراف، طلقات فارغة، زمزميات مثقوبة، خوذات مقلوبة.

لم يعبأ...

بوادر الختام بدأت تلوح في الأفق، بزغ فجأة بلا إنذار، فتية يرتدون زي كشافة يترنمون بأناشيد حماسية، اشتبكوا مع بعضهم البعض، ثم إثر نفير، اندفعوا كتلة واحدة نحو أحد الأزقة الجانبية، يدبون الأرض بخطوات عفية، واختفوا!

واصل زحفه، قلبه يضخ أسئلة لا حصر لها، اعترضه موكب مهيب، جلادون غلاظ يسوقون عبيدا سودً وحمرً عراة، يرزحون في الأغلال، يلهبون ظهورهم بكرابيج مسنونة كلما تباطأوا...

بدا الجميع بلا ملامح،

تحت ضوء شحيح باهت.

انتظر عبورهم، مخلفين ضجيجًا وطنينًا وآهات وجع واستنجاد، مال هذا الطريق لا يريد أن ينتهي!

حاول تذكر البداية، وما أوقعه في هذا الشرك، بلا جدوىٰ، جلبة شديدة وجموع متزايدة، لمحها تقترب. أبصرهم يمتشقون لافتات عريضة، يلوحون بصور، ويهتفون بحياة الزعيم القائد:

- كلنا فداءك...

لكزه أحد الحراس في ظهره، فهتف بحرقة، دون أن يستدير، فيخدش القوانين!

سأم وتعب، حتىٰ بلغ منتهىٰ الرحلة.

لم يهتم بأنها كانت غير ما تخيل أو حلم، أو استحق؛ بقدر ما اجتاحته سعادة التوقف...

وانتظار إشارات أخرىٰ!

العارف بالله

- هل اقترفنا إثمـًا لا نعلمه، أم ظلمنا الشيخ وحبسناه؟

كان للشيخ العارف بالله قداسته في النفوس، وسيرة عطرة تناقلها الآباء والأجداد، وتوارثها الأبناء في صرامة غير عاملين عقولهم فيما سمعوه.

- أنا ربكم الأعلىٰ...

تحلق الخلق حوله بغية الفتك به، لولا دراويشه ومُريدوه، شكلوا حائلا بينه وبينهم. صاح شيخ الحارة:

- لن تطأ قدما هذا الفاسق أرض حارتنا بعد الآن.

وتعالت الأصوات المنددة الثائرة:

- فليبق في الجبّ المهجور.

وتبخرت ولو لحين كل أوجاعنا الممتدة عبر سنين طوال من الخديعة في الرجل وحاشيته...

ثورة...

فلتكن ثورة علىٰ الطاغوت والثوابت والتوابيت المحنطة.

وتعالت الأصوات مستغربة:

- كيف سكتنا عليه، كل هذا الردح من الزمن؟

عاش الشيخ العارف بالله منبوذا في منفاه، فقد مهابته، وتأثيره علي الخلق، وإن تغنىٰ البعض بمآثر ماضيه، وتاريخه الموغل في القدم، والتمس البعض الأخر له العذر، قائلين:

- الناس جُبلت علىٰ الخير والشر معا.

وإن لم يلق ذلك أي ترحيب من قبل عوام الناس، الذين قالوا في وضوح:

- العبرة بالخواتم والرجل قد صبأ علنا.

هي شوارع ضيقة تنتهي إلىٰ أزقة تتقابل فيها البيوت والدكاكين، نزحوا إليها من نجوع مطموسة، كانوا يقبلون يد الشيخ في رواحهم وغداهم، ليتحلوا بالبركة والرزق الوفير، ولم يساور أحدهم الشك في أصل الشيخ...

من أين جاء، ما موطنه، من أبواه؟

لكنهم شعروا بأنه جزء لا يتجزأ من المكان، جزء أصيل في نفوسهم لا يتخيلون حياتهم بدونه.

- هل اقترفنا إثما لا نعلمه، أم ظلمنا الشيخ وحبسناه؟

وجاء شهر ديسمبر مطلع الخريف...

ونزل البلاء الأعظم، توالىٰ اختفاء الأطفال الصغار من أمام منازلهم ومدارسهم وورشهم، جنت الأمهات، واحتار الآباء، ولم تفلح قوة المباحث في معرفة الجاني.

ارتاب الكل في الكل، لاسيما بعدما اشيع عن مشاهدة سحنات غريبة، تتجول بالنهار والليل في الطرقات. وبدأت اللصوص والبلطجية من الحواري المحيطة في السطو علي المحال، ناشرين الفزع والرعب، وأغلقت المدارس بعد احجام الأطفال عن الذهاب.

وبدأ القتل والسرقة والخطف من الحوادث المعتادة في حارة الشيخ العارف بالله.

وبلغ التعب والعجز مبلغه، وأيقن الجميع أن الشيخ وأعوانه متورطين فيما يحدث.

فكم سخر الجان لأعمال خارقة، أعاد للناس أشياءهم المفقودة منذ زمن، دلهم علىٰ أماكن ذويهم المختفين، شفىٰ العليل، وفك ربط العوانس، نبأهم بأخبار ما لبثت أن تحققت، فشهدوا له بالبركة والوصل مع الله شأن كل أوليائه الصالحين.

أيكون قد سخر خوارقه لإيذائهم والانتقام لما اقترفوه بحقه؟

- فلنحرقه وأعوانه...

- بل نهدم الجبّ القديم علىٰ منّ فيه.

وصاح أحدهم في غضب:

- لماذا تركناه منذ البداية.

أما مأمور القسم فنهرنا حين التجأنا إليه، زاعقا في تهكم:

- ألم تحموه، وتتستروا عليه، حين شرعنا في القبض عليه!

وجاء الشتاء نذيراً يطرق الأبواب...

وتناقلت الألسن حكايات عن رؤية الشيخ يخرج عليهم وهم ناعسون، بجلبابه الأبيض وعباءته الرمادية؛ يحيل النظر فيما بينهم في شمم، ينثر ذرات من بخور فريد، يعبق المكان، وسرعان ما تنداح أصوات ذكر في عذوبة، يعقبها صوت متهدج رخيم:

- لقد خلق الله القلوب قبل العقول حتىٰ لا تفتنا الحكمة.

كثر أعداد الشحاذين والعاطلين، ورتعت الفاقة والعوز، واختفت السلع من الأسواق، وشح الخير، مما أوعز للفتية هجر أباءهم المتخاذلين، سعيا وراء الرزق، ينشدون حياة جديدة.

اندفع الأهالي يمتشقون الهراوات والسيوف والبلاطي، يزأرون:

- الهلاك للشيخ المخرف وأعوانه الشياطين.

- فلنفك آسر نفوسنا من حبائل السحر والشعوذة.

- لن ننجو ما دام حيا.

وتتابعت مسيرتهم، حاشدة، هادرة، تجوب الأزقة والحواري، حتىٰ المدافن القديمة وهتفوا في نفس واحد:

- أخرج يا شيخ...

وتكررت النداءات...

صلبة، دون تلبية، أو أدنىٰ حركة تنم عمن بالداخل. حطموا قفل البوابة الحديدية العالية الصدئة، مهللين بزوال الغمة، وانقشاع الكابوس، بأن يجهزوا علىٰ الدجال وبطانته، ولعنته التي تطاردهم.

ما أن ولجوا باحة الجب المسورة بحوائط حجرية، والمغطاة أرضيتها بالحصىٰ والتراب المدموك، حتىٰ تسمرت أقدامهم...

باغتتهم شدة المفاجأة، فوقفوا مبهوتين، يحملقون في بلاهة، يتبادلون النظرات فيما بينهم، الشيخ ممدد علىٰ الأريكة الحجرية المغطاة بكليم ملون مهترئ هيكلا عظميا، لا ينبئ عن شخصه سوىٰ أسمال بالية لجلبابه وعباءته. الدود يزحف، ينخر في رفاته، يتلوىٰ في التراب بشكل مقزز. رائحة نتنة تجثم، سدوا أنوفهم متأففين، نظروا للسماء المشرعة فوقهم، ثم قالوا في غرابة:

- الأذىٰ والشر لا يصدران عن الموتىٰ، بل الأحياء...

داهمتهم حقيقة ثقيلة، فكر الجميع مليا، في المشاجرات والمشاحنات والعداوات القديمة، وما خلفته من بغضاء وحسد وضغينة، تجسدت الشكوك شخوصا بعينهم حصر كل واحد أعداءه المحتملين...

تحولت باحة الجبّ إلىٰ ساحة قتال، أُعملت فيها كل ما حملوه من أسلحة وأدوات، فأُريقت الدماء، وتعالت الصرخات في جنون، ممتزجة بالرغبة في الثأر، بغية النجاة والخلاص...

بانت عظمتا فك وجه الشيخ العارف بالله - وهو راقدٌ - منفرجتان...

يبدوان علىٰ شكل ابتسامة!

الخلاص

جذبني الشيخ من قميصي زاجراً:

- اتق الله يا فاجر...

ضربته بساعدي الأيمن لأتخلص منه، وصرخت فيه:

- كلاكما لا تختلفان في شيء.

قال أبي في فظاظة:

- أديت الصلاة؟

حركت كتفي في استهانة. ثم متفاديا نزعة الافتراس التي تلازمه منذ إحالته للتقاعد:

- إن شاء الله.

لحقني صوته كلسعة سوط على ظهري:

- إذا رسبت، سأطردك شر طردة.

في غرفتي الصغيرة، تبرز صورتها في نعومة، أنهك قلبها بعنجهيته وأوامره. مارس القهر والتسلط حتى أسقطها!

أما أنا، فلم أعد أبالي بشيء، أغرق في أحزاني، لم أستوعب بعد فراقها. ظلت تحابي علينا، تتلقى الإهانات والصفعات، لتصد عنا مخالب وحشيته.

طالما تملكتني فكرة الانتقام، التحرر من العبودية، استنشاق الهواء النقي، إعادة ترتيب العالم في عدل!

تهادت إلىٰ سمعي أغنية قديمة، طالما أحبَتها، حدقت في مريولة المطبخ، إيشارب كانت تضفر به شعرها، روب كانت ترتديه، فنجان قهوتها المفضل، لاح لون عينيها الرائق، فاستشعرت بأنفاسها حية تغمر المكان!

فتحت باب غرفته، نائم بملابسه الداخلية، تقلّب فظهر كرشه المنتفخ، شعره الأشيب يتهدل علىٰ فوديه، هالني قبحه، بزته العسكرية معلقة علىٰ المشجب، دبابير ونياشين مرصوصة بعناية. تبرق بجوار نظارته الشمسية، تبدت النافذة خلفه، نصف مفتوحة، تملكتني رغبة حريفة، تقدمت نحوه وخاطر برق في داخلي كلمح البصر! تذكرت قولها علىٰ فراش المرض:

- «إن ضاق بك الحال، التجئ إليهم» .

استقبلني في ترحاب، قائلاً بنبرة مفعمة بالأسىٰ:

- أبوك رجل عنيد...

تدانت أصوات جلبة، فهرع للشرفة، ثم عاد مقفهر الوجه وأكمل:

- حتىٰ ميراث أمك استولىٰ عليه، ولما احتكمنا إلىٰ القانون - بحكم تخصصي - أذاقنا الأمرين، وأرانا ألاعيب الحواة، واستغل نفوذه لكسب القضية.

- أهجر المنزل أم أتخلص منه؟

- معاذ الله، ليس إلىٰ هذا الحد...

ثم أردف بعد تفكير عميق:

- الأوراق، أعثر علىٰ حجّة البيت التي تثبت ملكيته لأمك.

- وخالي «عبده» ؟

- اذهب، قد تجد لديه شيئاً غير الكلام.

في مقهىٰ يقبع في أخر ممر محصور بين عدة عمارات، وجدته جالس يمتص أنفاس المعسل. احتضنني بحرارة. حكيت اضطهاد أبي ومعايرته بالاستقرار الذي أحياه، أسوة بما نتلقفه من أخبار، وهو ينادي علىٰ النادل ليأتي بالشاي:

- كان لنا صولات وجولات، أنذرته بفضحه علىٰ صفحات الجرائد، عندما اعتدىٰ علىٰ أمك بالضرب.

وهو يعدل مبسم الشيشة:

- توعدني بالرفت، بل ومصادرة الجريدة.

- إلىٰ هذا الحد.

- لم آخذ تهديده علىٰ محمل الجد، ونشرت عن جرائمه وكذبه.

بلع ريقه بصعوبة، متلفتاً حوله في ريبة:

- وجدتني رهن التحقيق...

- هه!

- تخيل، والتهمة إثارة البلبلة وتكدير السلم العام.

وهو يودعني علىٰ باب المقهىٰ:

- الخلاص منه الآن، لن يجلب سوىٰ الفوضىٰ والخراب، فقد هدد بحرق البيت إن أرغمناه علىٰ الرحيل!

استيقظت مفزوعا قبل الفجر، وجدته يهرول في الصالة، يهتز لغده من فرط الرعب، يصرخ: «سأُريكم يا أولاد الكلاب» فتح الدولاب واستل بندقيته...

تلال من الطوب تنهمر علىٰ النوافذ والشرفات، حطمت أثاث الغرف، هرعت نحو نافدة المطبخ، أبصرت تحت ضوء القمر وفوانيس الشارع، شابا يرتدي سترة رمادية، فوق جلباب أبيض، ملتحيا، يلتف حوله ما يقرب من خمسة أشخاص. وبمزيد من التدقيق، اتضح أنه «إبراهيم» أخي الأكبر، شد ما تغير! ذلك الوديع الحالم الذي كان يحمر وجهه خجلا إذا نطق أحدنا بلفظ بذيء، كان يعشق تربية الحمام ونظم الشعر!

توقف سيل الطوب، خرج أبي من مخبئه، صوب بندقيته، طلقة أصابت أحدهم، سقط متأوها، سرعان ما حملوه وفروا هاربين.

دخل غرفتي هائجا:

- أخوك المجرم...

ضم السرادق الجميع، وقف في زيه الميري المهندم اللامع يستقبل المعزين، يرسم علىٰ وجهه قناع الأسىٰ والحسرة. وكلما حضر أحد من زملاؤه القدامىٰ، أجهش في البكاء في تكلف، فيربتون علىٰ كتفه في رثاء. أما الأقارب والمعارف فأخذوا يرمقونه في مقت،

لكنهم لم يكفوا عن مسايرته اتقاء شره، رغم تأكدهم من تورطه بالأمر.

يا لهم من كاذبين آثمين، كلنا صنعنا هذا الطاغية، وكلنا سندفع الثمن!

رددت هذا في نفسي، وأنا أحمل حقيبتي في هدأة الليل، وصورة أخي مقتولا، منعوتا بالإرهابي على صفحات الجرائد، سكين مرشوق، لا زال ينزف.

المحاصرة

- «قصير القامة، تخاله قزمـًا» .

لم أنتبه في بادئ الأمر إلا حين نبهني بواب المنزل بقوله:

- إنه يتعقبك بمجرد خروجك.

بدأت ألاحظه... كلما هممت بالقبض عليه كان يختفي في لمح البصر كأنه شبح.

قصدت أحد المعارف الذي يشغل منصبا أمنيا مرموقا، فأجابني بقوله:

- ألك خصومة مع أحد؟

فأجبت بالنفي، ثم أردف:

- أتمارس نشاطا معاديا للنظام.

في تعجب:

- ألم يسقط؟!

في سخرية:

- الأنظمة لا تسقط أبدا.

في ضيق منهيا المقابلة:

- أمهلني بعض الوقت.

قصير القامة، تخاله قزما، عندما يتتبعني في أحد الأزقة الشعبية أراه مرتديا جلبابا وعمامة بيضاء، شال مزركش ينسدل علىٰ صدره.

عندمايلاحقني عند مقر عملي الفخم بجاردن سيتي، يبدو في حلة بيضاء ورباطة عنق أنيقة، يقبض بين شفتيه سيجارا فاخرا.

صليت العشاء ذات يوم، لمحته خلفي، بلحية كثة وعباءة رمادية مُسدلة والمسبحة بين أنامله يسجد في خشوع! جاءني صوته الرسمي المحايد، عبر الهاتف، بعد بضعة أيام:

- لا شيء يشوبك ولا أحد يتعقبك...

- ولكن...

مقاطعا:

- حمزة، انتبه لنفسك ودعك من الأوهام.

تساءلت:

- «أيكون حل بي الجنون» .

عزمت علىٰ اللجوء للشيخ العارف بلله، قصدته في مسجد السيدة نفيسة، جلست بين يديه - بعد أن فرغ من أحد دروسه التي يُلقيها بانتظام - شارحا حالي.

قال وهو يستغفر ويحوقل:

- عندما يفيض القلب، يعجز العقل أحيانا عن الإدراك،

غادرته وأنا أنوء بحملي أكثر، لكنني أدركت بأنني أجابه ما لا أطيقه، حاصرتني الهواجس؛ فأنا لم أخرق يوما قانونـًا أو أخالف لائحة، كنت دوما مطيعـًا لكل رؤسائي، مجتهداً في عملي، لم أعتنق

مذهباً أو أتبنىٰ فكراً أو أتمرد علىٰ نظام قائم أو عُرف، إنما اكتفيت دوماً بالصمت والمشاهدة، فلماذا يحدث لي كل هذا؟!

لاحت لي بوادر مؤامرة، شرك يُنصب لي بإحكام، فانتويت النجاة بأي ثمن، قبعت في الخفاء حتىٰ ظهر أمامي واضحاً جلياً بقامته القصيرة، تفصلنا مسافة يسيرة تسمح لي بتعقبه.

وجدته يخترق الزحام قاصداً شارع كورنيش النيل، أمام مبنىٰ بث التلفاز، ثم عرج إلىٰ ميدان التحرير وسط الضوضاء والصخب، توقف لحظات أمام شارع القصر العيني.

في كل مرة يتبادل كلمات مقتضبة مع بعض الأشخاص، مجتازاً التجمعات الغفيرة، حتىٰ وصل إلىٰ مسرح البالون، ثم تسمر متأملا أفيش العرض!

شعرت بالإنهاك والتعب، لكنني أيقنت بضرورة حسم الأمر، اقتربت منه في حذر، وهو يوليني ظهره، وضعت يدي علىٰ كتفه، استدار...

قبل أن أتفحص ملامح وجهه، نصل حاد انغرس في لحمي.

بعد إسدال الستار

عامل البوفيه يستعد لإغلاق المسرح بعد انصراف الرواد، جمهور كبير أمام باب المسرح الخلفي في انتظار النجوم اللامعة من الممثلين.

دوي التصفيق والتهليل يترامىٰ إلىٰ مسمعي وأنا أمارس عملي في تنظيف المسرح وجمع مخلفات الرواد من القمامة.

يستعجلني «عم رجب» عامل البوفيه:

- سأقوم أنا بغلقه بعد أن أتم تنظيفه، فلتترك لي المفاتيح.

الساعة تدق الثالثة بعد منتصف الليل، ما من أحد بالداخل أو الخارج. ما زال ديكور العمل المسرحي قائما برمته؛ فالمسرحية تُعرض كل ليلة بنجاح.

المقاعد خالية، المصابيح مطفأة، أتوسط الصالة بحلتي الكالحة وقبعتي البنية.

- «هنا علي تلك الخشبة شهدت جرائم القتل وقصص العشق، شهدت بطولات الزعماء وخيانات النساء ومواعظ الصالحين، شهدت عوالم كثيرة، منذ أنجبت ولدي الأول «إبراهيم» عند عرض مسرحية مجنون ليلىٰ، وولدي الثاني «أحمد» في مصرع كليوباترا...

ثم الأخير مع مسرحية الأفيون... ».

يا لها من ذكريات... كل هذا تعاقب علي وأنا كما أنا، لم أتقدم قليلاً أو كثيراً

- « كل شيء حولك قد تغير، عداك أنت » .

- أيموت قيصر العظيم، روما تحلم بالخلاص، لا مفر من موت الطاغية.

أنت نبيل يا بروتس، حتىٰ أنت يا بروتس.

تقدمت نحو الصفوف الأولىٰ، تراءىٰ لي «قيس» وهو يشق رمال الصحراء متهدجًا:

- إذن لن تقبلي قيسًا

ولن ترضىٰ به بعلا

إذن أخفق مسعاي

وخاب القصد يا ليلىٰ

أمرق بين الصفوف، الكواليس ترمقني بعيون حية...

- «كم أحببتك يا 'سنية ' مضت بنا الحياة تعيسة حينًا، حلوة أحيانًا قليلة. لكنك رضيت بي وبها وأنا أحببتك » .

آن لتلك الروح الشريدة أن تستريح، لن يهدأ لي بال قبل أن أثأر لروحك المعذبة، قبل أن تكتمل مدارات الأقمار سأكون قد ثأرت لنفسي، وأرحت عذابات روحي، أكون أو لا أكون.

«سنية، أنتِ وجودي الحقيقي وانت كوني وكينونتي».

مازالت المقاعد خالية، لكن حياة تدب فيها فجأة، أحس بتصفيق ونبض يتهادىٰ وكلمات، هدير يطفو فوق أديم الصالة، الزمن يتراءىٰ فوق الخشبة كخرير الماء منسابـًا.

- «كم حلمت في مطلع شبابي أن أصير ممثلاً، لكني رضيت بالعمل في المكان المحبب إلىٰ نفسي، ضمرت أحلامي كثيراً، لكني راض. وما عساني أفعل غير ذلك؟»

وتجلت الفكرة في مخيلتي واضحة، فأغلقت أضواء الصالة، وأضأت المصابيح جلية فوق الخشبة، واعتليت المسرح:

- أنا قيصر روما العظيم، فلتنحن كل الأفلاك، ولتستح كل الأشباح، فوجودي أثبت من مدارات الشموس والكواكب، وإرادتي ماحقة بلا شك...

«أجول علىٰ المسرح» أنا قيصر لا محال، يسدل الستار، يدوي التصفيق، يتهافت إلىٰ سمعي صدىٰ كلمات الإطراء والاستحسان... تنطفئ الأنوار، أستعد لمغادرة المسرح من باب الممثلين الخلفي.

لا أجد أحداً ينتظرني بالخارج غير السكون يفرش أغطيته ورائحته علىٰ الشوارع والجو، أتفحص حلتي الكالحة، أتأكد من وجود قبعتي البنية،

ثم أهمّ بالسير متدثراً بشملتي كي أصل المنزل قبل طلوع الفجر.

مشاهد غير مرتبة

المشهد الأول

أسرعنا نحو النيل، احتضنا العربات الفارهة، الفنادق الشاهقة، وميض الليل، فوانيس الشوارع، تطفلات المارة، عربات الشرطة، سبحنا فوق أديم الأسفلت، همست لي:

- أحبك.

المشهد الثاني

أنتظر في الخارج... في يدي صحيفة، الحرب قد انقضت، عم أحمد البواب يرقص فرحا، لكن 'طه حسين' قد مات.

أفق من شرودي، علىٰ قسمات صوته الغليظ:

الوظيفة قد شُغلت لمن يستحقُها .

- لكن أنا من يستحقُها.

(ورفعت يدي)

يُغلق الباب في وجهي، أنصرف مردداً إحدىٰ الأغنيات الوطنية.

المشهد الثالث

النيل يداعب خويصلات الليل، يبحث عنا في المدينة الواسعة...

- هل ما زال بصيص من أمل؟

- سأحاول لكن أباك يغالي...وأنا ضئيل أمام القاهرة الجديدة.

ناديت بائعـاً متجولاً، تناولنا بعض الأطعمة، تعجبت من تنـاولي الطعـام في شـراهة، ضـحكتُ ضـحكة غيـر مفهومـة المـارة في تـوجس استرعت انتباه بعض...

وبكيت في داخلي!

المشهد الرابع

تخلعُ الخاتم من يدها...

- لكنىٰ أحبُك.

- كيف؟ «وتساءلتْ» .

نظرتُ حولي، الفنادق اللامعة تُفغر فاهها ضـاحكة، 'كلاكسـات' العربات تصمُ أذني، فوانيس الشوارع تتراقص كالأشباح، المذياع يبث برنامجـاً ضـاحكـاً، تنصـرفْ، أمضـي متخبطـاً، يعترضـني شـرطي، لا أحمل هوية، يصطحبني إلىٰ القسم.

- أقسم أنىٰ من القاهرة الجديدة...فلتسألوا النيل والليل.

يسبُ الضابط أبي وأمي فيسيل لعابه...

- أقسم أن النيل لم يعد حيـاً!

المشهد الأخير

أمي تبكي مرددة «لم يعد غائب».

تدمعُ...فيسيل النيل من عينيها، تشرق البيوت والشوارع.

أنظر في ساعتي، أزف الوقت بالرحيل...

- عدني بالكتابة.

- أعدُكِ بالكتابة .

الموسم الأخير

كان غارقا بين الملفات المتكومة على المكتب في عدة رصات بلونها الكالح، في الحجرة الواسعة القابعة بالمبنى العتيق بشارع طلعت حرب «إدارة السجلات».

نادى عم محمود الفراش فأسرع كالمعتاد يقدم له ساندوتش الفول وكوب الشاي الساخن، تناول قضمة وهو يقلب أحد الدوسيهات، يؤشر عليه بالحفظ في عفوية كأنه يؤدي دورا حفظه عن ظهر قلب في مسرحية عبثية امتد عرضها حوالي أربعين عاما.

انتهى من فطوره، قرأ في عجالة العناوين الرئيسية بالجريدة، سرعان ما ألقاها في درج المكتب. دخل الساعي يحمل المكاتبات الواردة أخذا توقيعه، ثم انصرف بعد أن سأله عن أخبار ابنه في الامتحانات، فرد الأستاذ محروس في رتابة:

- الحمد لله بخير.

بدأ في تفحص الخطابات الواردة بعد أن ثبت نظارته الطبية، مد بصره نحو المكاتب الخالية، الأستاذ «مرقص» والأستاذ «حسنين» كالعادة يتسكعان في باقي إدارات الوزارة تاركينه بمفرده. توقفت يده فجأة وهو يكر الخطابات أمامه مدققا في أحدها، سرت في بدنه رعشة خفيفة، أخرج الخطاب وأخذ يقرأه بصوت مسموع:

- «إدارة شـئون العـاملين تخطـركم ببلـوغكم سـن المعـاش في الحادي عشر من فبراير».

رفع عينيه صوب نتيجة الحائط المعلقة أمامه والتي تنبئ عن تاريخ اليوم، لفه دوار خفيف، عاد بظهره إلىٰ الوراء مستندا علىٰ الكرسي، شعر في التو واللحظة بثقل السنين المنقضية، تعب الرحلة يحل دائما عند النهاية.

ستون عاما سيبلغهم بعد شهرين، استعجب وتذكر أيامه الاولىٰ في هذا المبني كأنها كانت بالأمس...

ابتسم ابتسامة باهتة والتفت نحو نافذة الحجرة القابعة وراء المكتب، تبدىٰ الشارع من خلف الزجاج يعج بالمارة.

صبية مدارس يتبادلون النكات، في حركة دائبة ممتلئة بالحيوية، بعض الشباب والشابات ينتحون جانبا في حوار هامس دافئ، تساءل في دهشة:

- كيف لم يلفت انتباهي، هذه المشاهد من قبل؟

كأنه آلة صماء تعمل في حياد باهر بلا توقف بلا تلفت بلا انتباه للزمن، شحب وجهه، وشعر بأطرافه باردة، وقال في نفسه:

- ماذا سأقول للأولاد في البيت.

تبدت الحيرة في مقلتيه علي تساؤل أهم.

- «ماذا سأفعل في أيامي القادمة» .

هل الخريف نذير بأنه قد آن أوان الرحيل، يكنس اوراق الشجر القديمة ليفسح طريقا جديدا لربيع آتي مغترا بفتوته وعنفوانه. يظن بأنه الموسم الأخير في دورة الحياة.

أفاق من شروده علي يد تربت علىٰ كتفه، التفت فوجد الأستاذ راغب مدير الحسابات، قال له في إشفاق:

- أتعسنا الخبر.

رد بصوت جاهد أن يبدو طبيعيا:

- هذه سنة الحياة.

- الزملاء يودون تكريمك.

- لا داعي.

- لماذا فأحباؤك كثيرون.

- حسنا دعني أفكر.

أخذ إذنا وانصرف مبكرا عن مواعيد العمل الرسمية، قال في نفسه:

- «لن أعود في عربة العمل اليوم».

فليتمشىٰ في وسط البلد.

تسكع في الشوارع المحيطة بمبني الوزارة، أخذ يشاهد المحلات والفترينات، يتأمل المعروضات بعقل شارد.

رأىٰ وجهه في إحدىٰ المرايا فهاله كم الشعر الأبيض، والتجاعيد في وجهه، اندهش...

كيف لم يلاحظ ذلك من قبل.

لأول مرة منذ ثلاثين عاما

يشاهد شوارع وسط البلد في هذا الوقت المبكر، فقد اعتاد ان يكون منكبا علي الدفاتر والمذكرات، اجتماعات واجتماعات، كلمات وكلمات، وهذا العالم العجيب أسفل قدميه ولا يراه!

ما هذا الخلق؟ ما هذه الحياة التي تدب في الشوارع من حوله، إشارات مرور، نساء فاتنات، بائعون متجولون، طوابير مرتادي الحفلات الصباحية بدور السينما...

حياة حميمية زاخرة...

أين كنت طوال هذه السنين؟

أصحوت فجأة، بعد سبات شتوي طويل كأهل الكهف، الذين استيقظوا فجأة ليروا عالما جديدا غير العالم الذي تركوه منذ عشرات السنين.

- «نخبركم ببلوغكم السن القانوني للإحالة للمعاش» .

استرجع في نفسه كلمات الخطاب وأخذ يضحك علي حدة وسذاجة اللهجة حتىٰ استرعىٰ انتباه المارة من حوله، لمح مقهىٰ مندسا بين العمارات العالية في مكان ضيق تهب عليه تيارات هواء باردة منعشة، تظلله البنايات وتحجب عنه حرارة الشمس.

جلس علي إحدىٰ المناضد، طلب كوبا من الشاي وأخذ يتذكر أخر مرة جلس فيها علي مقهىٰ.

آه منذ ما لا يقل عن عشرين عاما حين أتاه صديق قديم يزوره في المنزل، تناولا الغذاء ثم نزلا يجلسان علىٰ مقهىٰ قريب يلعبان النرد.

برق في ذهنه كل أصدقائه القدامىٰ في بلدته المنيا، كذلك زملاء الجامعة.

أترىٰ أين هم الآن؟ أموات أم أحياء؟

طالما تقابلوا في الماضي وتبادلوا التأكيدات بضرورة أن يلتقوا شهريا، ثم راح كل واحد في دوامته التي لا تنتهي، أخذ عدة رشفات من الشاي، أخرج خطاب الإحالة للمعاش من جيبه وقرأه للمرة العشرين، ثم طواه وأعاده مكانه. سهم بعينيه نحو بائع العرقسوس يعبر الشارع ويقف علي الرصيف أمامه، ينادي بصوته الممطوط «عرقسوووووس» ويخبط بصاجاته مجلجلا، ناداه وشرب كوبا مثلجا في نهم، أخذ يرقبه وهو يصب العرقسوس بحرفية في الأكواب دون أن تندلق وتعجب من مهارته.

تمنىٰ في تلك اللحظة أن يقابل أصدقائه القدامىٰ، هم الوحيدون القادرون علىٰ استيعاب أحزانه، ما يختلج في صدره في تلك اللحظة.

لا أحد في البيت سيفهمه، كل ما سوف يعنيهم أن المرتب سيقل وستتوقف المكافآت، مما سيقلص مصروفاتهم، سيشيحون بوجوههم عنه في غضب ويشوحون في عصبية بأنهم ليسوا أقل من أقرانهم.

أما هو فلن يكترث أحد لمشاعره، لما يصدمه، يجعله كمن تلقىٰ ضربة موجعة علي رأسه أفقدته التوازن، القدرة علىٰ الإدراك وأفاقته

في نفس الآن علي حياة أخرىٰ، نهم وشراهة للحياة وغوص فيها، وليس وقوفا علىٰ أعتابها:

- «استيقظت بعد فوات الأوان، ماذا عساك الآن أن تفعل!

أنتظر الموت...

ماذا بقي لي غير ذلك...

هل أنتظره في البيت أم في المقهىٰ، في الجامع أم في الشارع؟» .

ساعة الذروة في وسط البلد، اختنقت الشوارع مع خروج الموظفين والمدارس، شاهد سيركا منصوبا أمامه:

- « يا ترىٰ تحرك أتوبيس العمل؟»

سيلاحظ «فتحي» السائق تغيبه، وسيحتار كثيرا ويسأل عن السبب وسيخبرونه في لهجة جنائزية: أصله خلاص طلع معاش.

لن يطيق نظرات الشفقة أو التشفي، لن يحتمل عبوس زوجته وأبناؤه، لن يقبل المكوث في المنزل منزويا مهملا، يتصفح الجرائد ويتحسر علي عمر مضىٰ، لن يظل أسير تلك الحبال الملتفة حول عنقه، تكاد تخنقه، فتح الزرار العلوي للقميص، ووسع فرجة رباطة العنق في ضيق، وأخذ نفسا عميقا. دفع الحساب وعيناه غائمتان، ساهمتان نحو الشوارع الممتدة، بزحامها أمام ناظريه بلا نهاية...

ترجل عدة خطوات ثم توقف...

أخرج خطاب إحالته للمعاش من جيبه ومزقه وألقاه علىٰ الأرض.

سار...

بدت محطة القطارات هدفا ليس بعيدا، وبدت خطواته نشيطة، مستلهمه، وثمة شعورا مبهما واعدا يحتويه.

كل شيء كان يستحوذ علىٰ اهتمامه وتفكيره صار بعيدا... بعيدا جدا... الأولاد، الزوجة، العمل، الكل يتقلص ويتضاءل بسرعة مدهشة، مخلفا وراءه أملا طاغيا، غير مفهوم وغير مبرر، لكنه يدركه بحواسه وقلبه، يشجعه ويحثه علىٰ المزيد والمزيد من السير.

تداعيات الرحيل

سألني:

- كم لدينا من الوقت؟

أجبتُه:

- يوم، أو ربما شهر، أو، لا أدري على وجه الدقة.

أبدى قراره في حزم بالسير. الكل أظهر سخطه وهياجه، لكن علي أنا وحدي تولي الأمر، ومجابهة جهامة اللحظات الفاصلة!

تفرست في وجهه قبل أن يُمعن في الرحيل، عيناه تلتمعان ببريق موحش، الساحات تغص بالجموع.

قلت متحيراً:

- كيف ترى كل هذا الحشد؟

- لن يتبقى من الضوء غير الذبالة المُلقاة في حويصلات العصافير الميتة.

لحظتها انخرطت في البكاء، ونهرت الأطفال عن التحلق حوله، والغناء:

- «والنبي لهشه، وأهدم له عشه» .

سألته:

- أين يستقر بك المقام؟

- أرض جديدة.

- من ينتظرك هناك؟

- ربما كثيرون، وربما لا أحد...

الحشد الراكض من خلفي، يئن، يستفحل، يتوحد كتلة بشرية واحدة. بفم واحد وعينين اثنتين، وبلا أذنين.

يحدجني الكائن الجديد بتفرس، فأحدجه في ريبة!

أساله وقد تلاشىٰ نصفه:

- ماذا يدعوك للاختفاء، وكلنا نحتاجك؟!

الكائن الجديد يهدر، يغضب، أحاول دفعه، أن أتسور بينهما، يقتحمني في همجية، يحاول احتوائي، أرفض، يصر في شراسة، يُجندني بلا استئذان، يَكرسني بين خلاياه، ينداح عالمي في لمحة كالوهم.

- «توغل معظمه، وتلاشىٰ، واستقر... » .

يحاول الكائن استبقاء الجزء الضئيل، تنسحق مقاومتي...

«أنصاع للنسيج المكتمل القادر علىٰ الإرادة والتحرك!» .

يتشبث به، يجتذبه للخارج،

يفلح في نفض الغمام عن نصفه، مازالت المعركة مستمرة، أعجز عن الحياد،

لا أملك حق المشاهدة، أنا جزءٌ من النشب المُستعر!

حكايات العفاريت

قالت جدتي: ما زال في العمر حكايات لم تحك بعد! أنكمش وأدخل في جلباب أمي، اختبئ من العفاريت.

يحكي خالي أنه مخاوي منذ زمن، تلبّسه جن شرير عندما كان يعبر شريط السكة الحديد ليلاً مع أبيه في إحدىٰ الليالي القمرية.

حذره أبوه من جهره بتحديه للعفاريت، لكنه جرب وقال بصوت عال:

- فليدخلني أي جان لو استطاع.

في لحظتها شعر بأنفاس تقترب منه، وكأن جزءا من روحه قد تفتق، وتيار دافئ مر خلاله. ورُتق الفتق مخلفاً روحاً داخله، تسكنه حتىٰ الآن!

وما أن أنهىٰ كلماته حتىٰ ابيضت عيناه، وانسالت من فمه رغاوي بيضاء، وانقلب علىٰ وجهه. صرخنا، وجريت أختبئ.

ثم ما لبثت أن سمعت القهقهات تندلع من الباحة الواسعة، ولم أعرف إن كان ما شاهدناه حقيقة أم مزحة ثقيلة من مزحات خالي المتكررة.

عاد أبي ذات يوم محموماً يرتعش، يتسند علىٰ أكتاف الرجال، خبطت أمي علىٰ صدرها، ثم مددوه علىٰ السرير.

وفي المساء أطلقت أمي البخور في أرجاء غرفته، تحلق حول سريره رجال الجامع، وأخذوا يتلون آيات من القرآن بترتيل محبب للنفس، ثم ما لبثت أن فردت مائدة مستطيلة تراصت عليها صواني الفتة باللحم، تكالب عليها الرجال في نهم، عندئذ هرعت إلىٰ الباحة الخلفية، فلم أجد العنزة، قالت أمي:

- كله فدا أبوك بس يخف.

حزنت علىٰ أبي، وكرهت العفاريت التي استباحت جسده وجسد خالي، ونذرت نفسي لمحاربتهما عندما أكبر، وكونت مع زملائي في المدرسة الابتدائية جمعية لمحاربة الشر في هذا الكون. ونذرنا أنفسنا لبطولات وزعامات في المستقبل، واخترت أنا مهمة محددة، وهي القضاء علىٰ العفاريت.

وعندما جاءنا خالي يخبط الباب بعنف وهو يبكي ويخبر أمي بأنه قد طُرد ظلما من وظيفته في الوحدة المحلية، أدركت بأن العفاريت هي السبب، دخلت عليه، وأخبرته بأنني أستطيع أن أعيده إلىٰ عمله، قال لي:

- كيف؟

أخبرته بأنني سأغز الجان بداخله حتىٰ أجبره علىٰ الهرب، ولما سألته عن أماكن وجودهم، قالت أمي:

- بكرة تكبر وتعرف.

لكني خمنت، وذهبت أنا وزملائي عند شريط السكة الحديد بجوار الترعة.

اختبأنا منتظرين ظهورهم، حتىٰ برز أحدهم فجأة، ما إن اقتربنا منه، حتىٰ وجدنا عينيه تبرقان وسط السواد الحالك كجمرتين مشتعلتين، ندت عنا صرخات مذعورة وهربنا بأقصىٰ سرعة، وعدنا لمنازلنا، ولما قصصنا ما حدث علىٰ أبي قال وهو ساهم في فراشه:

- ما عفريت إلا بني آدم.

مات أبي... وقتلت أمي كمداً وحزنـاً، جفت ينابيع الحياة في وجهها وجسدها.

ذهبت إلىٰ المدرسة الثانوية في المدينة، وعدت في الإجازة، اغتممت علىٰ ما وصل إليه حال خالي.

صار غريباً، شارداً عما حوله، يظل صامتاً طوال الوقت، وفجأة يزعق ويتفوه بكلمات مبهمة. هجرته زوجته وتركه أبناؤه، كان يقضي أوقاتاً طويلة في المقابر عند أبي، يشكو حاله، ويحكي عن الجان الذي يتلبّسه، وأنه سبب شقائه.

عز علي ما آل إليه،

وانتابتني الحيرة والعجز.

فماذا يفعل المثالي الحالم إزاء أجواء الشر والفقر والخوف؟؟

تبددت فرحة نجاحي بتفوق، إزاء حزن أمي الدفين وحال خالي المزري، وبعد سنوات عديدة من الغربة والترحال أدركت بأن ما شاهدته في الصغر لم يكن عفريتاً، وأن ما نذرت حياتي له لن أستطيع الوفاء به. فالكون يعج بالجان والعفاريت مختلفي الأشكال والألوان.

ولـــن تكفـــي جماعتنـــا الصـــغيرة التـــي كوناهـــا في المدرســـة لمحاربتهم.

ولن تكفي نذر الخير في قلبي ولا بخور أمي، ولا حلقات الـذكر ودعاء الصالحين

لعتق أرواحنا وأبداننا من نشيجهم المتوغل في جذورنا.

وظل السؤال يلاحقني كلما كبرت...

وكنـت أقـرأه في وجـه أمـي الصـامت، كلمـا زرتهـا في الإجـازات المتباعدة...

متىٰ يحين الوقت لنتخلص من كل العفاريـت التي تـنغص علينا حياتنا، تسلب إرادتنا...

وتنزع البهجة؟

البيت القديم

قالت:

- إن وجدته فلتقرئه السلام.

أجتاز حوش المنزل والبوابة الحديدية الصدئة، أرىٰ الناس والحافلات والدكاكين...

تسلك قدماي طريق «الجمالية» تحت سقف من سحب خريفية رائقة، موغلة في القدم، وقلب موغل في التذكر، أقف عند رأس الحارة المتدثرة بالبيوت والنوافذ وطلة العيون. مسحت نظارتي الطبية وبصقت.

هو نفس الباب الخشبي والدرجة المرتفعة الرخامية المفضية إلىٰ فناء منخفض مظلم، وبئر السلم .

أما زلت تذكر بئر السلم؟

ويدها تمتد في خفاء مبهم، فتلمس مواطن الرغبة والأنفاس الحارة تتسلل في مكر، وينفرج بغتة ضوء بقدر انفراج باب شقة، ويتكدس ظله علىٰ الجدار، فتبقيا لصق الجدار حتىٰ يسكن الظل، وتخفت دقة الأقدام المتتابعة، ويغرق وجهها المدور في عتامة الرغبة والخوف».

نفس الحارة والدكاكين المكدسة بضاعتها في ضجر، الوجوه المغبرة تحدق في كبشة العيال والنساء، القمامة المبعثرة فوق أديم

الأسفلت، عم «مصطفىٰ» الحلاق بطربوشه الأحمر العتيق ومنشته الصفراء المتدلية، وجهه المتذمر الضامر.

وقفت أمام البيت المرقوم،

«أما زلت مرقومًا؟».

أربعة مكتوبة بالسلاقون الأحمر علىٰ الواجهة، وبجانبها خروف مرسوم بالطباشير، وكف مطبوع...أصابعه حمراء قانية.

- (كم أقمت وما أنت بمقيم، ورحلت وما أنت براحل).

سور الخرابة، نتسلقه في خفة ورشاقة، نجلس في عشة معروشة بالبوص، أقمناها مستقرا لنا.

نرىٰ منها أطلال منازلنا المضاءة كأشباح خرافية، فيحلو لنا ذكر العفاريت وخوارقهم، ويتراءىٰ لنا «ملجأ الأيتام» بنوافذه الزرقاء وقباب أبنيته وحوشه الواسع كمسرح لتلك الخوارق. كم هممنا باقتحامه وكشف سره.

- «لكنك كنت تخاف دائما وتحسب حساب العواقب، وترجع إلىٰ البيت خائبًا فيضحك منك أقرانك، وتبيت تحلم أنك مقتحمه تطارد العفاريت حتىٰ تصرعهم!»

هل طمس التراب رقم الشقة؟ تساقط الجير وبانت أسياخ الحديد الجهم في عبوس...

- « كل شيء حولك قد بُلي»

نقرت الباب - ورائحة عطنة تفوح - عدة مرات متباعدة، فلم يصدر صوت ولا انبثق ضوء، يطوفون بالسواد إثر الصراخ فيحملونني

عبر الغرف. وأرقد أخيراً علىٰ سطح المنزل. أنظر من فوق، صندوق خشبي مستطيل يحمله أربعة رجال يغادر منزلنا، محاطا بنسوة يغشهن السواد، ويتعالىٰ نحيب، فيشق قلبي حزن معتم.

وانقبض حيال الحيرة المقتحمة، لم تفلح كركبة الدجاجات ولا قفزات الأرانب أن تخرجني من حالي.

تتابعت نقراتي علىٰ الباب ثقيلة.

- إن لم تجده اترك له مكتوبـًا.

تململت في وقفتي وتلفت ربما أهتدي إلىٰ أي أحد.

صوت المقرئ مفعم بالهيبة، غائر، السرادق بمصابيحه المتدلية في صمت، وكراسيه الحمراء المرصوصة في عناية، رائحة القهوة والصواني الفضية اللامعة. وأبي يجلس أشعث الشعر، متهدل الثياب لا يبتسم.

كلما اقتربت من أحد أداعبه، صدني أو احتضنني وملس بيديه علىٰ رأسي في حنو مبالغ، نفرت منه.

حتىٰ أقراني عندما ذهبت للخرابة عاملوني برفق كرهته، طرقت الباب بشدة للمرة الأخيرة، تيقنت من غياب منّ بالداخل.

تتبعت السلالم إلىٰ أسفل، غائصـًا في العتمة، تركت البوابة من خلفي واستقبلت جلبة الشارع. بعد خطوات قصيرة، راق لي أن ألتفت خلفي إلىٰ المنزل الغارق في سباته، خيل إلي أن وجهـًا ما كان يطل، وتراجع فجأة!

أيام بلا ثمن

هبط من الترام، عبر شارع «الحرية» المكتظ من الجانبين، جلس على المقهى المجاور لمحطة «سيدي جابر» صافحه الجرسون وأحضر كوبا من الشاي يتدلى منه أوراق النعناع . تصفح الجريدة اليومية، ثم طواها ونحاها جانبا، أخذ يرقب حركة المسافرين الجالسين من حوله، يركنون حقائبهم أسفل أقدامهم، يحدقون في عقارب الساعة بين حين وآخر.

فتح معطفه الملتف حول جسده النحيل، ليستقبل خدر نهار الشتاء اللذيذ، جرفه تيار الذكريات، ها هم يقبلون نحوه من صوب المحطة، يستقبلهم بالأحضان والقبلات، يتعلق ابنه الصغير برقبته، يلف ذراعه حول خصرها ويتضاحكان.

عمله كرئيس محكمة أرغمه على البقاء بعيدا عن القاهرة، حيث مدارس الأولاد وعمل زوجته كمديرة مدرسة، يتقابلون نهاية كل اسبوع كالأعاجم.

مما أتاح لهما فرصة تذوق طعم الفراق ولهفة اللقاء...

ظهر عم «علي» ماسح الأحذية، ألقى عليه التحية، ترك له الحذاء في حركة لا إرادية ليمارس عمله المعهود في دأب.

مضت السنون، ماتت الزوجة وكبر الأولاد وسافروا ليعملوا في بلاد بعيدة.

أما هو فما زال على العهد.

يأتي مطلع كل أسبوع .

ينتظرهم على المقهى وعيناه معلقتان ناحية محطة القطارات، يجتر الماضي، تتجلى أطيافهم بثقل الكائنات الحية:

«أراهم يهلون بثغرهم الباسم يلوحون لي، أتلقف فرحتهم، نلتم في حميمية، يسري الدفء في أوصال المدينة الغارقة في سباتها.

نجوب شوارع الأسكندرية، يبرق المنار كومضات خاطفة خلف مراكب الصيد القابعة أمام الميناء...

ثم ألتفت بغتة، فلا أجد أحداً!

لا شيء غير الخواء وصدى أنفاس متقطعة»

خفت حركة الرواد من المقهى، سماء الشتاء القادمة من البحر تغري بالرحيل، تبعث في نفسه آيات الفرح والنشوة، يستشعر دفئًا غريبًا، وتنداح في أنفه رائحة ملوحة البحر، فيتوق لسفنها الغارقة في ضباب الذاكرة.

يدفع الحساب ثم ينصرف واجما، يسير بعقل شارد، يعبر بوابة المحطة القطارات متراصة بلونها الرصاصي كعيون محدقة، دكك الانتظار تشغي بالراحلين، المفتش يرن الجرس، المسافرون يهرولون في كل حدب، الباعة يصيحون في صخب.

حدق في ساعة المحطة.

هرول الزمن...

أخذ قراره، عله يلحق بالقطار الذي غيبهم عنه منذ أكثر من عشرين عاما.

عزف صامت

في إحدى الصباحات الباكرات، اصطحبه خاله، يقبض بكفه المفلطح كخف الجمل، على يده الصغيرة الممدودة، كعصفور بض. يتململ محاولا الفرار، بلا جدوى!

يمسح نعاس النوم بطرف جلبابه المتسخ القصير، ويردد في سره كالبغباء:

- ستحل محل أبيك، ستحل محل أبيك...

أما الأم فقد انتحبت وناحت، بعد انتهاء مراسم الدفن:

- المعيشة ضنك واليد مغلولة.

مما دفع الناظر أن ينتفض من مقعده، ويزعق في وجوههم حين داهموه في مكتبه، يطلبون سحب أوراقه:

- خسارة الولد ذكي، افهموا يا بهائم.

ملامح وجهه الطفولي اكتست بمسحة شقاء وغلظة. ساءت طباعه، وبدا يُسمع في جوف الليل صراخ وزعيق أمه وتهديدها له، بأن تستدعي خاله ليؤدبه، تجأر في استنكار:

- أتقلده في إجرامه!

أخذ الولد في إطلاق صفيرا «يكور فمه، ويزم شفتيه» كلما همّ شخص بتعنيفه أو إيذائه، أينما كان.

حتىٰ نبههُ الأسطىٰ بأن يكف عن إزعاجه بهذا الصوت الممجوج الذي نفرت منه الزبائن، واستهجنوا بذاءته.

تمادت طباع الفتىٰ في التغير، صار شرسا، بالذات كلما لمح زملاءه القدامىٰ بالمدرسة، يمرون من أمامه، ينعمون بحياة يراها ترفا يفتقده.

كان في مرواحه ومجيئه، يقف في الشارع، يتأملهم بتمعن، يتقاذفون الكرة، ويتصايحون في نشوة. ويتعانقون كلما أحرزوا هدفا، فتهصره مطارق الحسرة والغم.

مارس «أسطواته» في الورشة عاداتهم الموروثة منذ قديم الأزل، بركله في مؤخرته أو صفعه علىٰ قفاه بسبب أو بدون، وسبه:

- أسرع يا بن الغواني

ليتعلم أصول الصنعة، متعللين:

- هكذا تعلمنا!

كان يزأر في وجوههم، ويطلق هذا الصفير عاليا، ليثير حنقهم وغضبهم.

تسحّب من فرشته ليلا، في إحدىٰ الليالي المقمرة، حتىٰ صعد إلىٰ مئذنة جامع الحي، التي تحوطه البيوت الواطئة كالأشباح، بنوافذها الضيقة كعيون متثائبة، بمداخلها المقوسة كظهر خفاش.

وأرسل صفيره ممطوطا حادا، اخترق الجدران - بعروقها الخشبية المهترئة، وأسقفها الصاج الصدئة - انساب عبر الشروخ

الطاعنة، وتسرب خلال الشقوق، اقتحم الخرابات والساحات. فانزعج فانزعج أهل الحي واستيقظوا فزعا متسائلين:

- أهو يوم القيامة!

ومنذ ذلك الحين...

أطلق الصبية عليه لقب «أبو صفارة» .

وعندما وقع الحادث الجلل في وسط المدينة وصار حديث الناس في البيوت والمقاهي والدكاكين، حتي المساجد.

وخلت الشوارع من المارة.

علم بالأمر بالمصادفة من رفاقه، أخبروه بأن هناك تجمعات كثيرة متخمة بشتىٰ أنواع الخيرات من مأكل ومشرب وخلافه، فعقد النية علىٰ الهجرة إلىٰ الضفة الأخرىٰ من هذا العالم المسكون بالضوء والدخان.

تسلل في غبشة الفجر مرتديا أفضل ما عنده، التقىٰ مع الصبية، قاصدين الرحيل، مخلفين حيّهم المتاخم للمدافن، يرفل في عتمته وروائح أهله النفاذة.

لما شارفوا علىٰ الوصول، بدا الميدان الكبير مهيبا بحشوده وأنواره وزخمه، وصيحاته التي تتعالىٰ:

- «عيش - حرية - عدالة اجتماعية» .

تلقفوه وأخبروه في أصوات رخيمة:

- معا، نبني عالما أفضل، أنقىٰ.

وبسطوا له كف الرحمة.

بدا له الكون أرحب مما كان يظن، اندس وسط الحشود الهادرة، غاب وسط الجموع، ممتزجا ومتوحدا فيهم.

وبدا له الماضي: أمه، الورشة، أخوته، الحي الممقوت، كسحابات دخان انقضت، مخلفة غصة في حلقه، وجرحا يتقيح صديده كل يوم، حتىٰ كاد يلتئم ويُشفىٰ بلا رجعة.

مستقبلا في الآن نفسه، مجهولا براقا، يشي بأشجار من الحلوىٰ وملاعب خضراء، وموائد زاخرة بما لذ وطاب. مواكب الشبع تجتاح فؤاده وتزلزله!

بعد وقت ليس بقصير انقطعت أخباره.

تناثرت أقاويل في المنطقة عما آل إليه مصير الفتىٰ، وسر اختفائه؟

أقوال زعمت موته إثر إصابته بفرد خرطوش في رأسه، وأخرىٰ جزمت بأن إحدىٰ الجماعات الدينية قد تبنته.

رأي معارض أكد عمله بإحدىٰ ورش السمكرة بمنطقة «الدويقة».

لكن الشيخ «نعيم» إمام المسجد، أقسم بأغلظ الإيمانات بأنه يشاهده كل حين يرتقي درجات المئذنة، يتدثر بشملة مزركشة، ويطلق صفيره المعتاد.

ومما رجح رواية الشيخ، ما أشيع عن سماع الأهالي صفيرا متقطعا في أوقات متأخرة من الليل، في بعض ليالي الشتاء العاصفة، ما زال صداه يتردد بين جنبات المكان.

الوافد

عام مضىٰ منذ نزوحه من قريته في عربة الترحيلات في صباح باكر من صباحات قريته.

شعر بأنه يودع عالمـًا يعرفه إلىٰ مجهول لا يعلمه إلا الله.

ـ جندي مجند عبد المولىٰ عبد المجيد عبد الكريم.

ـ أفندم.

كان ينطقها بطريقة، من فرط حدتها وسذاجتها، كانت تضحك الجميع، حتىٰ

باتوا يتعمدون سؤاله عن اسمه.

كانت طبيعته مسالمة، لذا كانت أشد المأموريات إيلامـًا علي نفسه حين يتلقىٰ أمراً بضرب أولئك الذين يتظاهرون في قلب العاصمة، فقد علمته أمه منذ الصغر:

– لا تؤذي إنسانـًا أو حيوانـًا أو جمادا.

أما أباه، فكان يردد في ساعة العصاري:

– الآدميين سواسية كأسنان المشط...

وكانت تلك المأموريات تنتهي غالبا في دقائق معدودة، فسرعان ما يفر معظم المتظاهرين، بمجرد تلقيهم الضربات الموجعة.

– جندي مجند عبد المولي عبد المجيد عبد الكريم.

– أفندم.

كان ذلك اليوم صباحه مُختلفا، تحركت العربات محملة بالعدة والعتاد حتىٰ وصلت إلىٰ الميدان الرحب، وأغلقت حدوده، واصطف الجنود طبقا للأوامر.

وجد «عبد المولىٰ» جموعـًا غفيرة، تزداد بمرور الوقت، وهتافات تدوي بسقوط النظام والحكومة، منددة بالانتخابات الأخيرة.

عندما نظر إلىٰ الوجوه الغاضبة، راعه تلك التعابير علىٰ وجوههم، فتية وفتيات، رغم صغر سنهم، ينبضوا بالحيوية والجرأة والتصميم.

بدأ الجنود في الهجوم بهراواتهم، كموجات متتالية علىٰ الجموع المحتشدة - تزامنا مع إطلاق قنابل الغازات - والتي كانت كلما تلقت الضربات، صدتها أجسادهم المقتحمة دون فرار.

سأله أحد الشباب وهو يصد ضربة عن وجهه:

- لما تفعلون ذلك؟

شعر بأنه لم يعد يفهم شيئًا، هاله الصدق في عين الفتىٰ والجسارة في صوته، اشتبك الجميع في غابة من الدخان والدم ورائحة المطاط والبارود تعبق الجو، وإذا بعربات أسطوانية مقفلة تظهر فجأة كالمردة تدهس الجموع، وأصوات عويل وصياح كأنها صادرة من الجحيم!

سقط عليه أحد الشباب، والدماء تفور من عنقه بغزارة، تناثرت دافئة علي وجهه، مسحها بكم جاكته، ولفحته أنفاسه الحارة وشهقته، حتىٰ سقط جثة هامدة بجانبه، صرخ في هستيريا، توك عصاته، خلع خوذته ودرعه وجاكته الميري، وطوحهم علىٰ الأرض. أخذ يعدو بأقصىٰ سرعة صوب إحدىٰ الشوارع الجانبية حتىٰ اختفىٰ عن الأنظار!

ومنذ ذلك التاريخ لم يعد «عبد المولىٰ» لمعسكره ولا لبلدته ولم يعثروا له علىٰ أثر.

طاف أبويه بكل الجهات دون جدوىٰ، حتي قنوات التلفاز والجرائد، أذاعوا قصته بلا طائل.

أخبرهم أحد المعارف بأنه شاهده، هائماً علىٰ وجهه في أسمال بالية، عند جامع سيدنا الحسين، هرعوا للمكان، فلم يجدوا أحداً. أُدرج رسمياً في قائمة المتغيبين.

نسوه زملاؤه وأصدقائه،

بعد أن رثوه طويلاً، لكن...

لم يستطيعوا أن يضحكوا كالماضي، أما أبويه، فمازالا ينتظران عودته!

- جندي مجند عبد المولىٰ عبد المجيد عبد الكريم...

محافظة الشرقية.

- أفندم.

قبل الرحيل

هبط من الترام، جلس على المقهى المجاور لمحطة «سيدي جابر» صافحه الجرسون وأحضر كوبا من الشاي تتدلى منه أوراق النعناع.

أخذ يرقب حركة المسافرين الجالسين من حوله، يركنون حقائبهم أسفل أقدامهم، يحدقون في عقارب الساعة بين حين وأخر.

سيسلم نفسه للمعسكر ابتداءً من الغد ولايعلم متى سيعود؛ فالحرب لم تضع أوزارها بعد، إنها فرصته الأخيرة ليراها ويودعها قبل أن ترحل لمدينتها القابعة في أعماق الصعيد.

استقبل خدر نهار الشتاء اللذيذ، ظهر عم «علي» ماسح الأحذية، ألقى عليه التحية، ترك له الحذاء في حركة لا إرادية ليمارس عمله المعهود في دأب.

جرفه تيار الذكريات،

ما زال على العهد،

يأتي مطلع كل أسبوع... ينتظرها على المقهى وعيناه معلقتان ناحية محطة القطارات... يجتر الماضي، تتجلى أطيافها بثقل الكائنات الحية:

«أراها تهلو بثغرها الباسم تلوح لي، أتلقف فرحتها، يسري الدفء في أوصال المدينة الغارقة في سباتها.

نجوب شوارع الأسكندرية، يبرق المنار كومضات خاطفة خلف مراكب الصيد القابعة أمام الميناء،

ثم ألتفت بغتة، فلا أجد أحداً!

لا شيء غير الخواء وصدىٰ أنفاس متقطعة»

خفت حركة الرواد من المقهىٰ، سماء الشتاء القادمة من البحر تغري بالرحيل، تبعث في نفسه آيات الفرح والنشوة، يستشعر دفئًا غريبًا، وتنداح في أنفه رائحة ملوحة البحر، فيتوق لسفنها الغارقة في ضباب الذاكرة.

يدفع الحساب ثم ينصرف واجما، يسير بعقل شارد،

يعبر بوابة المحطة، القطارات متراصة بلونها الرصاصي كعيون محدقة، دكك الانتظار تشغي بالراحلين، المسافرون يهرولون في كل حدب، الباعة يصيحون في صخب.

حدق في ساعة المحطة،

هرول الزمن .

أبصرها تتكئ علي نافذة القطار بمرفقيها، أسرع نحوها، احتضن عينيها، المفتش يرن الجرس.

يتحرك القطار.

الحب، الحرب، المدائن البعيدة، دوامات الانتظار...

وأنا وأنت وحكايات السفر البعيد.

تحت ضوء الشمس

كان الليل لم يبدأ بعد انتشاره السريع، حين وقف أمامي بوجهه الشمعي وشملته الحمراء، وقفازه البني.

لم تكن المرة الأولىٰ التي يظهر لي فيها!

كانت هيئته تخيفني في بادئ الأمر، حتىٰ اعتدت عليها.

- «لكل بني آدم قرين تحت الأرض» .

قالها أحد العارفين.

تساءلت:

- ملاك أم شيطان؟ وبما توحي هيئته؟

استقبلني الشيخ في بشاشة، وأجلسني علىٰ يمينه، وترك المسبحة تتدلىٰ من يسراه، تلألأت تحت ضوء القناديل المحدقة في صمت:

- كف عن الشر إن كنت من أهله، واقرأ آية الكرسي قبل أن تنام والمعوذتين، ثم استأنف وهو يهم بالمغادرة:

- هل ترىٰ أشكالا غريبة في أحلامك؟

لم يتبق علىٰ ميدان العتبة الكثير، ولم يتبق لي جلد، كي أخترق شارع الفجالة المزدحم. ضجيج المحال وضوضاء الناس كانت تلسعني وتخمش وجهي، وتستقر في جمجمتي، فأنزل عرقا حتىٰ أفلح في شراء حاجات الأولاد. وأنا أعطي البائع قطعة النقود الورقية، استشعرت بأنفاسه اللزجة من خلفي، التفت وجدته يستقبلني

بابتسامته المعهودة، سرعان ما تأبطني، ولم يعطني الفرصة كي أسترد الباقي.

كنا سويا ننظر في صفحة النيل، كانت عيناه لامعة، ووجهه يتطاول بصورة مخيفة، كأن يد مهولة خفية تضغط علىٰ عظمتي الفك، وتعبث بملامحه. لم أسأله السبب، ولم أتلق جوابا، لكن الغناء المنبعث من إحدىٰ البواخر النيلية، كان شجيا للدرجة أنني لم أشعر برحيله!

- « كتل كثيفة من الدخان تحجز الهواء عن رئتيك، اقلع عن التدخين وإلا... قالها الطبيب في حزم، وقالت زوجتي:

- علىٰ الأقل توفر النقود، والصحة.

وضغطت ومطت حروف الكلمة الأخيرة، فأدرت وجهي مثبتا بصري علىٰ أشعة بيضاء تتسرب من شيش النافذة المغلق، وتندلق علىٰ أرضية الغرفة!

ألفيته يجاورني وأنا أصلي في الجامع الكبير. كان يقرأ معي الفاتحة في خشوع. لحيته الكثة البيضاء تتدلىٰ حتىٰ تكاد تلامس الأرض.

نظرت حولي للمصلين، ونظرت للإمام، لم يشعر أحد بوجوده غيري! خرجت من الصلاة وتقوقعت علىٰ الأرض في آخر المسجد دافنا وجهي بين ركبتي، حتىٰ أيقظتني يد خشنة، ونبرة آمرة:

- سنغلق المكان.

- «أخوك إبراهيم بعث بخطاب، سيأتي بعد شهر» .

قالتها زوجتي في عجالة وهي تغلق باب الشقة.

ومن قبلها قالها «إبراهيم» وهو علىٰ أبواب الرحيل:

- «بلاد النفط» مناط الحلم، نهاية المطاف، لن أعود إلا إذا...

بريق عينيه الجاف - حينذاك - لم يبرح مخيلتي، وشيء ما لا أدريه، لم يستطع طوال تلك السنوات قهر غيابه.

- أمك تموت، عُد في الحال.

- أبوك يحتضر، عُد في الحال.

- الليل قارس، والبرد عارم، عُد الآن أو لا تعد علىٰ الإطلاق.

السرادق مهيب بمصابيحه المدلاة، وكراسيه المرصوصة كالأصنام، أقف علىٰ مدخل الصوان كحارس ما، أياد المعزين تشدّ علىٰ يدي، لا أميز يدا، الأعناق تتوالىٰ، كلمات الرثاء الممجوجة تتراكم. زخم الأنفاس يكاد يخنقني.

عيناي محملقتان في اللا شيء، رائحة البن وقماش الخيام المزركش والناس يزيدون من غربتي، لمحتُه جالسا من بعيد، ينتحب في تصنع، رفع يده، تجاهلته.

بعد دقائق، انصرف، فيما كان المقرئ مسترسلا في التلاوة.

إبراهيم عاد...

«هناك، لم يعد كما كان». رحب بنا، شقة رحيبة، مزدانة بالتحف والتماثيل والأضواء، وعينان متخمتان بالشبع، منطفئتان. شعره

الأبيض يعلن على الملأ قسوة الغربة، يداه غريبتان عن يدي، أهداني قارورة عطر لها رائحة متلصصة.

وضعنا الحقائب في الشقة، وغادرنا الحي الراقي، القابع على أطراف المدينة، وجلسنا في إحدى الفنادق المطلة على النيل:

- كيف الحال؟

قالها، وقرب وجهه مني، فضايقتني أنفاسه.

- أشكو من كل شيء.

وملت بالكرسي إلى الوراء، ورويت له قصتي مع «الآخر» فحدق فيبلاهة، وأجابني وهو يغادر بهو الفندق ذو الأبواب المتداخلة المصطكة في عنف، بأنه طالما رآه في الخليج، بل ومكث معه أوقاتا طويلة، ونصحني بقوله:

- صادقه أفضل من أن تخسره!

اعتدت عليه ولم أعد أخشاه؛ بل صار مألوفا لدي، نمضي أغلب أوقاتنا سويا، نتناول الإفطار معا، وأحيانا العشاء. بدأ يخطط لحياتي، يناقشني في أولوياتي، يقترح بدائلا جديدة، مبهرة، صرت أستعين به في أدق تفاصيلي. وشئيا فشيئا بات يملي علي حلوله.

إبراهيم يعيش بعد عملية جراحية بثلاثة شرايين جديدة، زوجتي تلح علي كي يقيم «الآخر» معنا، وابني الصغير يحتج.

النيل لم يعد يبعث في داخلي الشجن، ولا ميدان العتبة يبعث الكآبة.

- «لم يعد باقيا سوى التوثيق» .

قالها إبراهيم – لي – ناصحا، وهو يحزم حقائبه عائدا.

والشيخ قالها منذ زمن:

– هل أنت من أهل الشر؟

وأمي قالتها قبل أن تموت:

– «البطران يجد القطران» .

نمضي سويا بوجوهنا الشمعية، وقفازاتنا البنية، تحت ضوء الشمس!

النعاس

لم أنتبه إلىٰ ابتسامة قاطع التذاكر لي إلا وأنا واقف علىٰ الطوار، أتأمل حركة الناموس المحومة حول الضوء الأصفر الناضح من فانوس المحطة.

وعلىٰ البعد، نفر غير قليل ينتظرون مثلي علىٰ ما يبدو.

كانت ظلال المغيب تهبط في تؤدة وكثافة، ثمة رائحة شتاء منداة، تتسلل إلىٰ أرنبة أنفي .

خلف الزجاج، يتبدىٰ ناظر المحطة بوجه مغبر، كوب شاي ساخن يتصاعد منه البخار ويتجمع، فيزداد الزجاج غبرة.

وأنا أتجول علىٰ الطوار خيل إلي أن ناظر المحطة يلوح لي بلفافة متوسطة الحجم، وعلىٰ شفتيه ابتسامة عريضة، أحبكت المعطف الأسود الكالح حول جسدي، واستقرت في داخلي أغنية قديمة.

غلبني شجن مفاجئ، وأنا أنظر للقضبان المقتحمة ضبابية المكان في همجية.

تراءىٰ لي القطار وهو يقترب، رصاصياً غامقاً، فالتفت خلفي، وجدت غرفة الناظر خالية، كان الديوان شبه خالي، رهط قليل ناعس أو محملق عبر الزجاج للمرايا المتتالية، كهل يرتدي بلوفر كاكيا، رقبته تمتد إلىٰ صدغيه، امرأة معروقة الوجه متشحة بالسواد،

شاب منفوش الشعر ساهم عبر النافذة، لم يلتفت أحد لي عندما جلست، كان يبدو وكأن النعاس قد غلب الجميع.

تذكرت كلماتها:

- «عليك أن تكون هناك بعد حوالي ساعة ونصف ».

- «لا تنس بعد الاطمئنان عليها، غلق المنافذ بإحكام» .

أردت أن أسأل عن الوقت، فهالني معاصم أيديهم كلها خالية، لافتات تحذيرية تجرم استخدام الهواتف الخلوية، فتكاسلت أن أقوم وأسأل.

تجلىٰ ناظر المحطة بشدة في مخيلتي، حتىٰ تطابقت هيئته وأوصافه علىٰ الكهل الغارق في سباته أمامي.

اقترب المحصل في حلة زرقاء صوفية، بأزرار نحاسية شديدة اللمعة، دوائرثلاث صفراء علىٰ نهايتي الأكمام، ياقة قميص كاكي تطل من فرجة العنق.

مددت يدي بالتذكرة، وأنا شبه ناعس:

- ذاهب إلىٰ أين؟

- المحطة بعد القادمة.

- لا تصلح هذه...

نظر الكهل بطرف عينه وتثائب.

- قطعتها لتوي

- ليس شأني...

- ماذا أفعل؟

انسحب فجأة، ومضىٰ عبر الممر الضيق بين المقاعد وغاب. جثمت ابتسامة قاطع التذاكر الملعون فوق صدري، رأيته عائدا ومعه اثنان أخران، نطق أحدهما في حزم:

- تذكرتك؟

- معه، وأشرت إليه.

تهادىٰ صوت مذياع آتي من بعيد تتخلله كحة متقطعة، في نبرة ارتياب:

- قديمة.

- هل هي قديمة!

- قديمة.

ثم غابوا عبر الممر الطويل، حتىٰ اختفت حلاتهم الزرقاء.

جو مقبض، رذاذ أمشير يتكاثف علىٰ الزجاج، ثمة عتمة تزحف في هدوء، ضوء أصفر لثلاثة مصابيح (اثنان مضيئان وواحد منطفئ) يبثوا الكآبة في نفسي.

كل هذا يتجمع فيستبد بي شوق جارف لرؤية الناس والشوارع وضوء النهار.

عادوا بعد قليل، كانوا خمسة في نفس الهيئة، وقفوا أمامي وحدجوني بنظرة مدققة، قلت في توجس:

- أأدفع ثمن تذكرة أخرىٰ؟

قالوا في نبرة جماعية:

- هويتك؟

أشتم رائحة نوم عطنة تزكم أنفي، قلت وانقباض يعتريني:

- الحقيقة أني...

قبل أن أكمل، هتفوا:

- لحظة واحدة.

ثم تقاطروا في مشية صارمة، أيقنت أني في ورطة، ثبت عيني على فتحة الممر أتوقع قدومهم، أخمن... كم سيكون عددهم المرة المقبلة؟ فيما كانت المرأة تعدل من وضع طرحتها السوداء، منحرفة برأسها جهة اليمين، والكهل يغط في نومه... فارداً ساقيه.

اليقظة

عائد لتوه...

ينوء بأكفان يوم شاق مضىٰ، يتحسب لغد مجهول أتي .

يتلمس طريق المنزل، تفادىٰ الموكب المهيب، وسار علىٰ قدميه، مخترقا دون أن يدري حشدهم المتدافع المشتعل بالهتاف، متجاوزا دوائر الممنوع.

لحق به الحرس المرافق، أوقفوه لصق الجدار، كبلوا يديه من الخلف، أوثقوا عصابة فوق عينيه، دقوا رأسه بكعب بنادقهم، أغمض جفنيه، وراح في غيبوبة.

أفاق ليجد نفسه في قاعة فسيحة، محتشدة بالرجال والنساء، رائحة بخور تتضوع، موائد ممتدة، متخمة بما لذ وطاب، نوافير تتوسط الباحة، تتدفق بشلالات مياه ملونه، صوت المعازف يضفي علىٰ المكان أجواء أسطورية، كألف ليلة وليلة...

سار الهوينىٰ، يتأمل وجوه الناس، المستغرقة في الاحتفال، يحتسون كؤوس الخمر، شعر بأن وجوههم مألوفة، كأنها تتطابق مع زملائه في العمل، أشاوروا له بأن يشاركهم، ندت عنه ايماءة بلا معنىٰ، رنت ضحكاتهم في جوانب القصر.

تعجب مما حدث له...

ما بين طرفة عين وأخرىٰ.

تناسىٰ عن عمد كل ما سبق هذا البعث المبهر، الغير مبرر!

الموكب، العصابة، الحشد، كل شيء، كل شيء، لا يريد أن يتذكر سوىٰ اللحظة الآنية.

أيكون قد مات؟

و تم حسابه...

هل دخل الجنة أم النار؟

توالىٰ قدوم عدة رجال علي الساحة، يرتدون ثيابا مزركشة، أخذوا يؤدون ببراعة حركات راقصة، منسقة، يتلوون في انسيابية. لما أطال التحديق فيهم، رمقه أحدهم بنظرة جامدة... عرفه علىٰ الفور، إنه أحد المخبرين الذين استوقفوه في الموكب، انتابه الذعر، أشاح بوجهه مبتعدا، كان السلطان كما يبدو من هيئته، يتربع في صدر المجلس بجوار الحاشية، يصفق ويثني علىٰ العرض!

تساءل... هؤلاء الناس، هل ط للمكان بنفس طريقته؟ خاف أن يسأل فيفسد تعويذة السحر، لتفقد مفعولها، فيجد نفسه من جديد في أحضان طواحين البؤس والشقاء.

استأنس بشعور، أن لا أحد يراقبه، يرصد خطواته.

إنه حر طليق! نعم يشعر بذلك لأول مرة.

حر، يتكلم، يصمت، يأكل، يغني، يتثاءب...

كأنه مزق صك العبودية، فك أسر قيود الإذلال، عجوز يشبه أباه، اقترب منه، بادره بالسؤال:

- أين الرسالة يا بني؟
- هه، «وفتح فاهُ مشدوها» .
- ألم تقابل كبير الديوان؟
- لا
متعجبا:
- كيف جئت إذن؟!
- ماذا تحوي الرسالة؟
- ألا تتذكر...

سحب شهيقا عميقا، وزفره ببطء متلذذا، طاردا كل سموم روحه، في ركن عامود، شيخ يتصدر مجلس علم، كما تبدو هيئته، يُلقي درسا، ومريدوه كثر، جلس القرفصاء، ينصت، تحدث الشيخ عن علم الفلك ومدارات الأقمار، وقوانين المد والجزر، وأخذ يتنقل برشاقة وعذوبة ما بين موضوعات شتىٰ، بلغة يسيرة، فيأسر الألباب بعمق حكمته وغزارة علمه.

ما أن أنهىٰ حديثه، حتىٰ انفض الجمع، استبقاه بإشارة من يده، سأله عن وجهته، وماذا استفاد مما سمع، تلعثم، بان الغضب علىٰ وجه الشيخ المشرّب بالحمرة:
- من أتىٰ بك؟
- لا أعرف.
- أول مرة؟

المنصتون لـدرس الشيخ، أخـذوا يلتفـون لاهـين حـول مغنيـات حسان ممشوقات القوام، بأصواتهن الرخيمة، يدققن الأوتـار، يـترنمن بموشحات أندلسية بديعة.

أومـأ السـلطان برأسـه، فسـرعان مـا نصـبوا أمامـه سـتارة بيضـاء شفافة، تومض خلفها مصابيح إضاءة.

وشرع يشـاهد وهـو يقهقـه، إحـدىٰ تمثيليـات خيـال الظـل، التـي تجسـد دُمـاه «عجيـب الـدين الـواعظ» و«عسـلية المعـاجيني» و«عـواد الشرماط» و«مبارك الفيال» و «ناتو السوداني» وهي قصة طومـان بـاي، وكيف تم شنقه أمام الناس، علىٰ باب زويلة.

خرج من القاعة بعد أن ملأ بطنه بأكداس اللحم، وتجرع كأسـين من النبيذ المعتق.

لمح شجرة سنديان ضخمة وارفة الأغصان، لم ير مثلها من قبل، أسند رأسه علىٰ جذعها، غلبه النعاس فراح في سبات، حتىٰ علا غطيطه علىٰ صوت صدح البلابل، فتح حدقتيه بصعوبة شديدة،

وجوه شمعيه بملامح شائهة، يجلسون أمامه، يتفحصوه.

السلطان يتوسطهم، الشيخ ينزوي صامتا، أبي يهز رأسه، طومـان باي يُشهر سيفه...

الناس تُقبل من بعيد!

الجائزة

صوت كالهمس...

استيقظ من نومه مفزوعا، ارتدىٰ ثيابه في عجل، تجنب النظر إلىٰ المرآه، اجتاز الدرج في عدة وثبات متلاحقة.

لم يرد تحية جاره، أو سؤال البواب عن الأجرة وفواتير الكهرباء والغاز والمياه، ابتسم بلا سبب لبائع الجرائد، حدق في العناوين الضخمة التي تنبئ بقدوم زمن الخير والبركة.

تبدلت ملامحه لما لمحها تنحني في دلال وهي تساوي طرحتها المزركشة، فتبرز تضاريس جسدها البض، تخفي خصلة شعر انفلتت في لحظة مخاتلة، صبية يزحمون الشوارع بالصياح واللهو، يتبادلون سباباً فاحشاً، باعة يتسورون جدار محطة المترو بمناداتهم الضجرة، طنين نحل يصم أذنيه ويلسعه.

سدهما بكلتا يديه، وتناول حبة دواء تمكنه من السعي الحثيث، وجد نفسه عند المكان المقصود كما تلقىٰ الرسالة، طرق الباب في حذر، أسوار عالية تفصله عن العالم الخارجي، كأنه ولج عالماً غير العالم الذي يعرفه وانسحق في حواشيه.

ظهر رجل غليظ الملامح، تفحصه في ارتياب ثم سأله:

- ماذا تريد؟

- لدي موعد.

وأظهر له فحوىٰ الرسالة، قرأها في ضيق، وتمتم وهو يقوده إلىٰ قاعة انتظار فسيحة، وصلا إليها بعد أن اجتازا عدة ممرات مسقوقة باللون الأبيض وموشاة حوافها بنقوش تبدو فرعونية، فارسية، لا يدري:

- أن الجميع سرعان ما يأتون وسرعان ما يرحلون، لكنه النظام ليس إلا...

جلس علىٰ كرسي فوتيه مريح، غاصت مؤخرته فيه .

مضىٰ الوقت بطيئـًا حتىٰ كاد ينعس لولا توافد عدة أشخاص يحملون وجوه بدت له شبه مألوفة، لكن عندما دقق تأكد أنهم غرباء، داهمه احساس بأنهم يعرفون بعضهم، رغم قدومهم فرادىٰ، بدا له أنهم يتعمدون تجاهله، أو لا يرونه، فتح الرسالة وأعاد قراءة محتواها:

- «كسبت المسابقة الكبرىٰ، سارع لاستلام الجائزة».

وحددوا المكان والموعد، في هذا البقعة النائية الذي تعب حتىٰ وصل إليها، أرشده سواق ميكروباص عجوز وأخبره:

- قليلون من يرتادونها.

هلّ رجلان يرتديان ترنجات بيضاء في مشية صارمة، نادوا علىٰ اسمه، رفع يده، اصطحباه وهو يتوسطهم صعدوا سلالم قصيرة، أفصحت في أخرها عن رواق معتم، تكتسي أرضيته بسجاجيد فاخرة، شعر كأن أقدامه تغوص فيها، أشارا له نحو حجرة مغلقة، بأن يتفضل، استفسر:

- هل أتفضل؟

ردا بإيماءة:

- تفضل.

استغرب أنهما لم يتفوها بكلمة واحدة طوال رفقته القصيرة، أدار المقبض في حذر، حجرة واسعة، خالية من الأثاث، عدا مكتب بيضاوي بكرسي عالي الظهر والمسندين، أمامه كرسيان خشبيان بينهما خوان صغير، باقة ورد تطل من فازة تستقر في وسطه.

لم يستغرب طلاء الحوائط والأسقف باللون الأبيض بقدر دهشته بأن الحجرة بلا أية نوافذ...

لمح علىٰ ما يبدو كاميرا ترتكز علىٰ إطار معدني، مخرج إنذار حريق، وصورة للموناليزا، انتابه قلق مشوب بالتشوق لمعرفة جائزته، واستلامها، طول الانتظار أشعره بالغضب، ما أن همّ بالقيام ومغادرة الغرفة، حتىٰ انفتح الباب، ودخل رجل مهندم في وجه حليق وحلة سوداء داكنة، وربطة عنق أنيقة، ابتسامة لزجة تلتصق بشفتيه، صافحه بحرارة، وتمنىٰ له التوفيق، مهنئـًا إياه:

- شرفتنا.

- الشرف لي.

ملاطفـًا:

- مضىٰ علىٰ مكوثك وقت طويل؟

- بعض الشيء، لكن لا بأس.

- أعذرنا، فالمسؤوليات جسام .

- كان الله في العون.

ثم أردف في لهجة رسمية دعائية:

- علينا إرضاء الجميع، وإلا...

- وإلا...!

- فقدنا مناصبنا...

متعجبًا:

- لهذه الدرجة، أهي شركة أم مؤسسة؟

رمقه بنظرة مدققة، كأنه تفاجأ بوجوده:

- ألا تدري ماهية المكان الذي ولجت إليه؟

- لا بالطبع، لكن الرسالة...

مقاطعا:

- أية رسالة!

دلفت يده إلىٰ جيب السترة، لكن الرجل أمره في حزم بالتوقف، مردداً:

- سنرىٰ، سنرىٰ، لا تتعجل.

استأذنه لبضع دقائق، ثم خرج.

بدا له الأمر برمته غير مفهوم، هواجس طلّت من مكمنها، فتذكر في تلك اللحظة، إشارات الغرباء له في بهو الانتظار...لحظة مناداة اسمه، والتي ظن أنها لا تعنيه، لكنها ألحت عليه الآن، وتحير في مغزاها...

قرر أن يغادر المكان فور استلامه الجائزة...

عاد الرجل بوجه متجهم بعض الشيء، بادره قبل أن يجلس:

- حدثتني عن الرسالة، ممكن أن أراها.

- نعم بالطبع...

أخذ يقلب جيوب السترة والبنطال،بلا جدوىٰ، والرجل يراقبه في توجس...

- لا أدري، أظن أني فقدتها...

- كنت أتوقع ذلك.

- ماذا...لا أفهم.

- لا بأس، لا بأس...

- آه، تذكرت، أخذها الرجل عند البوابة.

- أي رجل!

- ذو الوجه الغليظ والأنف المدبب.

- لا يوجد عندنا رجل بهذه الأوصاف.

- كيف!

أخذ يتكلم في هاتف أرضي موضوع أمامه علىٰ المكتب بصوت خافت للحظات، ثم قام من مكتبه، وأخذ يدور في الغرفة، يروح ويجيء، ثم جلس علىٰ الكرسي قبالته...

- ما الذي أتىٰ بك؟

- الجائزة.

- أية جائزة؟

- المسابقة...

- أية مسابقة؟

ثم وهو يتحسس ذقنه في ضيق:

- لماذا لا تصدقني القول؟

- أنا لا أكذب...

ثم أردف، مشوحا بيده في عصبية:

- أهي مزحة ثقيلة أم خدعة.

الرجل في نبرة هادئة:

- أأستطيع أن أرىٰ هويتك...

- هه، «وفغر فاهه».

شعر بالتورط، أنه وقع أسر شرك نُصب له بإحكام، فطالما سمع عن الشركات التي تخدع عملائها بمسابقات وهمية.

- هل أستطيع الانصراف...

الرجل في صرامة:

- بالطبع، لكن بعد أن تفسر لنا سبب قدومك.

- المساب...

صارخـًا في وجهه:

- كف عن هذا الهراء... لقد تأكدنا...

صارحنا أفضل لك، كيف علمت مكاننا.

والدم يتدفق كالحمم في رأسه:

- من أنتم...

قام الرجل وعاد إلىٰ مكتبه، دفن وجهه بين كلتا يديه...ثم بلهجة حانية:

- ماذا تشرب؟

- شكراً .

- نادراً ما أغضب، الغضب هو آفة العصر الحديث، المذابح والصراعات هما نتاجه، هل أنت عصبي المزاج؟

- أبداً...

- ألم تثر يوماً علىٰ أي شيء.

وهو يشعر بأنه يقع في جب عميق:

- أهذه مؤسسة أمنية؟

- ليس بالضبط...

كأنما لدغه عقرب عندما تأكد من شكوكه، هب واقفاً وهتف في حدة:

- لقد خُدعت والله العظيم.

- اهدأ، كلنا معرضون لهذا، لكن...

- لكن ما ذا...

وهو يتأرجح بكرسيه يمنة ويسرة:

- الأشرار يملؤون العالم، لا يتركون للأخيار مثلنا مكاناً، أهذا عدل؟

لم يدر ماذا يقول، فهز رأسه موافقاً، فتح الرجل دوسيه أمامه، وثبت نظارته، وبدأ يقرأ بصوت عال متصنعاً الجدية:

- أحمد محمد ابراهيم، خريج تجارة، أعزب، تعمل في مجال البورصة، مشهود عنك الكفاءة وحسن الخلق، عدا...

بصوت مرتعش:

- عدا ماذا...

- أمور بسيطة، يتيسر علاجها...

مدافعا بحرقة:

- دوما في حالي، لا أتدخل فيما لا يعنيني.

- تلك هي مشكلتك.

- هه!

- تخيل شكل العالم... لو تصرف الجميع بمثل أنانيتك.

- لا أفهم.

- أتظن أننا نعيش في فراغ؟!

- لا بالطبع.

- الخطر يحدق بنا من كل جانب؛ وهذا يضع كل منا أمام مسؤولياته.

- لم أخرق قانوناً، أو أتحدىٰ أي نظام.

- أتظن هذا كافياً...

- ما ذا عساي أن أفعل؟

- الكثير، والكثير...

وهو يتشبث بأي طوق نجاة:

- أنا طوع أمرك.

- عظيم، عظيم، كما توقعت.

- أأستطيع الانصراف الآن؟

- بالطبع...أنت الآن عين طيبة سترصد لنا ما يجرىٰ في الخارج من حماقات.

صافحه بحرارة، وأعطاه كتيب صغير، مدون به بعض التعليمات، وهو يودعه في الرواق المفضي إلىٰ طريق الخروج أخبره بابتسامة باهتة مفعمة بالظفر، بأن الرسالة حقيقية، وكذلك الجائزة، لكنها علىٰ نحو آخر غير ما يألف...

تراءىٰ له المكان وهو يبتعد خارج أسواره، في هبوط المغيب الوئيد موحشا، مقبضـًا، حتىٰ شعر بتوقٍ شديد للزحام والناس وضوء النهار.

الخطوة التالية

الساعة الواحدة ظهرا،

يقف في شرفة الدور الثاني من البناية التي تقع مباشرة أمام مدرسة البنات الإعدادية، يرتدي بنطالا مخططا، فانلة بيضاء، يراقب عشرات الفتيات اللاتي يتوافدن علىٰ المدرسة تأهبا للفترة المسائية، يرفلن في قمصان بيضاء شفافة تبرز معالم نهودهن، التي تترجرج مع اهتزاز أجسادهن الصغيرة، فتتخايل أمام ناظريه مئات النهود المختلفة في أحجامها واستدارتها، مكورة في حجم البرتقالة، ناتئة في حجم الليمونة.

عيناه لا تكاد ترىٰ وجوهن بقدر ما تتفحص صدورهن.

لم يعلم سر تعلقه بهذه العادة، ولا لما يستهويه هذا الجزء بالذات دون باقي الجسد، لكنه يشعر بسعادة وتوق لا يقاومان!

حين كان صغيرا، كان لا يشعر بالدفء والأمان في هذا العالم الصاخب المخيف، الذي يبدو لعينيه بلا نهاية؛ إلا في حضن أمه.

تلقمه ثديها، فيعتصره بفمه متشبثا به، بكلتا يديه، فتغمره الطمأنينة، تهدهد أمه، تربت علىٰ شعره، تقبل رأسه وهو يمتص لبن الطفولة، يُشبع نفسه وجسده برائحتها الذكية النفاذة، كأنه يسمع صوت خرير جداول ما ء عذبة، تتدفق في أنحاء روحه، تجري وسط حدائق غناء زاخرة بأشجار وارفة، عصافير تصدح بألحان شجية، ترف البهجة في قلبه، فينام تداعبه أحلام اليقظة.

ليلة زفافه.

احتشدت الزينة، أضواء ملونة، موائد عامرة بما لذ وطاب، عزف حتىٰ الفجر، عروس تجلس بجواره كفلقة القمر، تلمع عيناها ببريق الفرحة.

انفض الجمع، بقيا بمفرديهما في حجرة النوم، أزاح الطرحة في تؤدة، تألقت علىٰ وجنتيها بسمة كفلة يانعة، ضمها إلىٰ صدره في رقة.

خلعت ملابسها، نظر إلىٰ جسدها البض، صدرها الممتلئ، كثمار ناضجة حان قطفها.

داهمته صورة أمه

بدأ في اعتصارهما بيديه، ثم شفتيه في نهم، وهي تتأوه من اللذة والخجل . استرسل في مص رحيق نهديها في شبق، حتىٰ طالت المدة.

بدأت تتململ، ولما بدا الأمر غير مفهوم، سحبت جسدها العاري من أسفله بسرعه في ذعر.

ارتدت ملابسها في عجالة،

خرجت متوترة إلىٰ الصالة. انقبض حيال الحيرة المقتحمة، لم يجد مبررا لغضبها وثورتها، لكنه تماسك، وحاول في الليلة التالية والتي بعدها، كرر ما فعله حتىٰ رفسته بقدميها بعيدا عنها، انتابه الذهول، لما واجهته بقولها:

- ما تفعله غير طبيعي.

أجابها بأنه يشعر بمنتهىٰ اللذة، وأردف ساهما:

- ألا تشعرين بها أيضا؟

أخبرته بأنها لذة ناقصة، لا تكتمل، لماذا يتوقف عند هذا الحد؟

حين ماتت أمه حملوه بعيدا من فوق سطح المنزل، رأىٰ صندوقا مستطيلا مكللا بقطيفة خضراء، يحمله أربعة رجال، يغادر منزلهم، نسوة يتلحفن بالسواد، يأخذن في النشيج والعويل خلف النعش.

بعد سنوات عديدة أدرك بأن صدر أمه الدافئ، كمركب تحمله بلا شراع لعوالم ساحرة، قد فقده إلىٰ الأبد،

أنه أصبح وحيدا في عالم يموج بالخطر والقلق والأعاصير.

قالت حماته في أسىٰ:

- لماذا لا تقصد أخصائيـًا؟

أجابها في وجوم:

- فعلت...

- فلتستشر طبيبا نفسيا.

- أتتهمني بالجنون!

- يا بني، ماذا يمنعك عن إكمال ما تبدأه؟

حدث الطلاق في صمت...

تزوج مرة ثانية وثالثة، تكرر الأمر، كلهن رفضن التوقف عند اللحظة الآنية والاستغراق فيها، رفضن أن يظل العالم بريئا طاهرا،

أن يهبن الحب والحنان بلا مقابل، وتساءل:

- «هل أجد امرأة مثل أمي، تقبل أن تمنحني صدرها، أرتشف منه شهد الحياة، دون أن تطالبني بالخطوة التالية؟»

الدجال

تدلّت عينه كالعنبة، وخرج من الشرق، ممتطيا دابته، فارتفعت مآذن متعبات، وكفت صلصلة السيوف!

في الشارع الأقوام يتكالبون ويتصاعد ضجيجهم لعنان السماء، فيزعجون قمراً يوشك علىٰ الخسوف.

وفي الشرفات العيون تبحلق ولا تبصر، والنساء أخذن زينتهن، ووقفن فوق أسطح البيوت يزغردن.

ومن الأديرة والمعابد توالت المسوح والرهبان، فتحوا الكتب واتجهوا صوب الشمس الموسومة، وأقاموا صلوات حارة.

(تتابع كالبرق ماراً بالغيطان والبقاع والأودية، الجموع تتزايد في ركّبه وتطوىٰ له الأرض).

وهناك فوق الجبل يتجمعون من كل صوب، من فارس والشام، يرتدون الطيلسانات والدروع، يسلون السيوف ويترقبون!

وفي البيوت يزيحون ثقل النعاس بالمجانيق، يرتدون ألبسة صيفية، ويرتلون ترانيم للعشق. يفترشون أوراق الجرائد، يضاجعون النساء في ليالي البرد.

يقول أبي: الكل غائب والواحد منفي.

وكان العسس يتجولون في الأسواق، وبين الطرقات، يفردون الخرائط ويمحون الأسماء، يتشممون الأحجار، يلقون

بالأطفـال في الجـبّ ثـم يعـودون يسـتحمون بـالعطر، يشـربون شـايا ثقيلا، ويتسامرون!

الميعاد عند النهر، يهبط من فوق دابته، ينزلون من أعالي الجبال تتدلىٰ عينه كالعنبة، تُقرع الأجراس، يغشىٰ الحلم القلوب.

(وكـان صـوت التلفـاز يتـدانىٰ مـن بعيـد، ينبـئ بقـدوم العصـر الجديد، ويذيع مراسم الاحتفال).

كلٌ يحمل سيفه، ويمضون صوب النهر.

المساء السعيد

وأنا أقلب خزانة ثيابي، عثرت عليه، كنت قد خبأته منذ زمن. منذ عصور سحيقة. حتىٰ زوجتي وأطفالي لا يعلمون عنه شيئًا.

في خلوتي، تأملته وقلّبتُه بين يدي،ملامح حادة محفورة بيدٍ غليظة لا تلين، نظرة ثابتة سامقة، لا تراوغ، ولا تتكسر.

عاودني الحنين لأيامي المنقضية علىٰ الأرض، الجامعة، السكن في مدن الاغتراب، المظاهرات، هتافنا المدوي، حلمنا الناهض المعجون بحناجرنا:

- يسقط الطغاة، حطموا قضبان الخوف...

تقاطروا بهراواتهم، هصروا عظامنا، سكّروا الأفواه، بجحافلهم الممتدة كلبلاب شيطاني، صادروا الهويات واقتطفوا الأعمار.

ارتجفت يدي، ألقيته في الدرج المفتوح، قشعريرة انتابتني، فأربطة كتفي الممزقة، كسر ركبتي الملتئم، سحجات وكدمات متفرقة ما برحت أثارها، نزف روحي، لا زالت تناوشني ألامهم كل حين وأخر.

كان صوت منشد الفجر عميقًا، نافذاً، يأسر الألباب، أطللتُ من النافذة؛ سماء بنفسجية تهيمن علىٰ الكون، بشائر نور تغري بالأمل.

شعرت بحاجة ملحة لا تُقهر للتطهر، للتحرر، أن أستقيم إنسانا من جديد.

وهتف نداء خفي في داخلي محذراً:

- أنسيت يا غفلا ما تملك، عملا ًمرموقـًا، زوجة جميلة، بيتـًا أنيقـًا مرتبـًا، عربة فارهة، حياة يحسدك عليها الجميع...

أفق يا مأفون!

في مكتب أمن الجامعة، برم شاربه الغليظ:

- نريد أسماءً، ولا تخف فالغد مشرق.

حتىٰ زملائي في العمل، لم يسلموا من وشاياتي، حظيت علىٰ التخرج بامتياز وعلىٰ منصب مرموق، صرت كادراً نشطـًا في الحزب، الكل يخشاك، يتلمس رضاك.

مدعو أنت علىٰ كل المآدب، عضو بارز في كل المنتديات والفاعليات، التي يضج بها هذا الماخور.

- «ماذا تريد أكثر من ذلك، أتحن للفاقة والعوز، وصفعات المخبرين فوق قفاك، وجلسة القرفصاء في باحة المخفر، ويهل صوت أبي معاتبـًا:

- اصطبر، قول الحق مرير، واللقمة المغموسة بالذل، لا تسمن ولا تغني من جوع، بل تسمم البدن.

ماذا حصدت يا أبي، غير التشرد والهوان؟ فصلوك من عملك بعد أن أفنيت عمرك في المصنع، دافعت عن كرامة زملائك، جهرت بالإفراج عن المعتقلين!

أخبروك بروية وعجرفة:

- لا شأن لك بهم، ما ذا تظن نفسك، رئيس وردية، «طز» حبسوك، وكسروا روحك، لم ترتسم الفرحة علىٰ حنكك من بعدها.

وصرخت:

- لقد تعلمت الدرس.

وهو يتلو أدعية الفجر:

- كلا لم تتعلم أيها العاق!

شبق جارف يدعوني لارتدائه، والنزول إلىٰ الشارع، برز الصنم الحزبي، نجم الإعلام، ببزته الأنيقة وشعره المجعد اللامع من إطار التلفاز:

- أتجازف يا أحمق بكل شيء.

مع ضوء الصبح الحاد، باغتهم في العمل والحزب والملتقىٰ الأسبوعي لمدح النظام، والتغني بنواياه وصنيعه المبهر الخلاق، باغتهم بوجهي القديم.

لم ينتبهوا في بادئ الأمر، حتىٰ اشتموا رائحة جلد حريفة، أنفاس غضة، داهمتهم بحة صوتي، طرفة عيني.

في لمح البصر انشقت الشوارع، اندلعت الشياطين والقردة والخنازير، بسحناتهم الممسوخة، أطلقوا صفارات الإنذار، أذاعت منصاتهم في هلع:

- انتبهوا، انتبهوا...

وجه هارب من حظيرة الطاعة.

نكرر...

وجه هارب من حظيرة الطاعة، التزموا الحذر، التزموا الحذر.

أُعلنت الطوارئ، نصبوا الأكمنة بالطرقات، وأغلقوا القرىٰ والمدن بالمتاريس، انطلقت صفوف العسس بكلابهم السوداء المزمجرة يقتفون الأثر، يتلفون الأدمغة، يتخموا الزنازين...

أئمة الفتنة اعتلوا المنابر، بلحاهم الكثة وأصواتهم الجهورية، حرفوا الآيات والأسفار، استشهدوا بالمزامير، ليجدد المارقون البيعة، ويقسمون بالولاء، ويجثون مطأطأين، في حضرة سلطان البلاد والعباد.

أنشب السعير أظافره في لحمي، غرس مخالبه في جمجمتي!

لم أطق، خلعته في الحال...

عذرا أبي، لا أقوىٰ... لستُ مثلك.

انقشع الجحيم في الحال، استكان الكون لناموسه الأبدي، وانتظمت المجرات والأفلاك في مدارها الطبيعي، عدتُ للمنزل سالمـًا أحمل أكياس الفاكهة والحلوىٰ، أقص لزوجتي وأطفالي حكاية المساء السعيد!

القاعة

ركام المديح تصاعد حتىٰ كاد يسد منافذ الخروج!

عرجت وسط الجمع، تراءت لي البيوت وهي تتهدم، فحيح الطائرات وهي تعوي، الألغام تشرئب، ثم تذوي تحت مقاعدنا، قذائف اللهب تتلوىٰ في سخرية، وتنفجر مخلفة غباراً يزوم ويزوم ويحجب الرؤية ثم لا يلبث أن ينقشع رويداً رويداً، مفصحاً عن احتفالٍ ضخم...

قاعة مزدانة بالثريات المذهبة تنفث أضواءً ملونة. ستائر مُسدلة بإحكام، تفصل الداخل عما يدور بالخارج. صور جنود بخوذاتهم ونيرانهم وأرديتهم المُموهة، يخوضون معارك ضارية، تتوسد الجدران، تكاد تنطق من فرط التجسيم والدقة!

إثر النفير، توافد المحاربون القدماء، تهادت عجلات كراسيهم المدولبة، هتفوا للمجد علىٰ إيقاع النشيد الوطني، ابتسم القائد في ظفر، لمعت أسنانه ونياشينه وهو يقلدهم الأوسمة، واحداً يلو الآخر، وسط فلاشات الكاميرات المتكالبة.

اقتحمت نسوة يتلفعن بالسواد القاعة، انتحيت جانباً، وشرعن ينتحبن في صمت.

لم يلاحظهم أحد.

دموعهم المُذرفة، أنبتت بركة من دم، تحركت في أحشائها أطفالٌ ممسوخة، بلا رؤوس، بلا يدين، بلا قدمين، تحركوا كقطيع في نظامٍ

عجيب، شكلوا لوحة جدارية، انصهرت مع عزف كونشرتو أوبرالي، جاء خصيصاً من بلاد الفرنجة ليشارك، فاضت النشوة، ما زلت أطوف بالقاعة، منظم الحفل في بزة بيضاء وبابيون أحمر عريض، يتقافز كالقردة بين الصفوف.

اقتربت منه:

- متىٰ يحين دوري؟

رمقني في شزر:

- من أنت؟

وقبل أن أنبس، بادرني وهو يتفحص ورقة يقبضها بين يديه:

- اسمك غير مدرج.

وقبل أن أستفسر عن السبب، ولاني ظهره، ما زحاً مع أحد نجوم الفن، المبثوثين في القاعة كالهشيم، بزغ وجه زوجتي وهي تنحني علىٰ الماكينة، تثقب بإبرتها نسيجاً محتشداً، ناصحة:

- ليس عالمك.

فكرت في تحطيم وجه هذا الملعون بعكازي، لكني تريثت، أعلنوا عن فقرة السيرك، بدأ لاعبو الأكروبات، يمتشقون الحبال في مهارة، حبست أنفاسي وهم يتنقلون من جهة لأخرىٰ بخفة ورشاقة، دون أدنىٰ غضاضة! انتابني شعور غامض بأني أعرفهم، التفت نحو المقاعد، بدت خالية!

بين كل فقرة وأخرىٰ، كانوا يستأنفون تقليد الأوسمة.

فقرة الساحر، بقبعته العالية، ولباسه الأسود المجنّح، وعصاه البراقة، سحر الألباب، خبل العقول، وخلب القلوب بخفه يده وظله ومفاجآته المُذهلة.

خيل إلي أنه يشبه القائد لحد مريب! النسوة الملتحفن السواد تقدمن ببطء، وشكلن دائرة، أعلنت المنصة:

- حان وقت تكريم الشهداء.

أبصرت كل رفاقي القدامىٰ، ينهضون من أجداثهم وينسلون، يتبادلون الأنخاب في كؤوس صدئة، وطفقوا يتراقصون وسط الدائرة، رافعين أياديهم المبتورة بعلامات النصر، والدود ينخر في عظامهم، ويتقاطر من عيونهم وأنوفهم.

بكيت بحرقة، وصرخت:

- الشهيد لا يموت، الشهيد لا يموت.

التفت نحوي مذيع الحفل، وأخبرني، بأنه قد حان دوري.

أطبق الصمت، زحفت من مكاني نحو المنصة ملوحـًا بعكازي، التف حولي الساحر ولاعبو الأكروبات، خلع قبعته، وألقمها أرنبـًا، شَعْوَذَ ودَجّلَ، فتبدلت قنبلة وسط تصفيق الحاضرين. تفحصهم مليـًا ثم ألقاها نحوهم هازئـًا!

في المنزل.

عندما تفحصت قلادتي، انقلبت خفاشـًا يتلاطم!

أخفضت رأسي، وحاولت الاختباء.

التابوت

كلما شرعت في اقتحام هذا المنزل النائي، أشعر بالانقباض!

أوقن بخلوه، وبأنه صيد سهل، لكن تعتريني رعدة مخيفة كلما اقتربت منه. الليلة فقط حسمت أمري...

تسللت بحذر، اجتزت المدخل الخالي المعتم، هالني المنزل رابض كالشبح، طابق واحد يطل بنوافذ موصدة، كأنها أعين ترقب في وحشية، تعاملت برفق مع الباب - «بعتلة» أخفيتها طي ملابسي - الذي انفرج عن بهو صالة فخم، أثاث عتيق، جرامافون، ستائر مسدلة، آيات قرآنية محفورة بخط كوفي، صور جماعية لنساء ورجال كثر، جالسون يحدقون في جهامة.

جلت ببصري، أمسح الغرف، لم أجد شيئًا. تهادىٰ طنين أغنية قديمة!

لما هممت بالاقتراب من مصدره؛ داهمني صوت رخيم هادئ، فالتفت مذعوراً، ألفيته جالسا في ضوء شاحب، ببدلته العتيقة، طربوشه الأحمر يتدلىٰ، تتأبط إحدىٰ ساقيه الأخرىٰ:

- أنت...

- هه...

- ألا تعرف جدك يا ولد؟

وقهقه عاليا وهو يبرم شاربه الغليظ:

- أنت أول من جاء يزورنا من الأحفاد الملاعين.

وقبل أن أستجمع شتات نفسي، راحة كف لامست كتفي في نعومة، فانتفضت مذعورا:

- أتخاف من جدتك يا عفريت!

تأتأت:

- لا، أنا، أنا...

- أحضرت للزيارة؟ أم...

وقرصت أذني، اعترفت في تردد:

- أخبروني بأن المنزل متخم بالكنوز.

مطت شفتيها في اشمئناط.

هتفت مدافعًا في حمية:

- بالخارج الناس يقتاتون من حاويات القمامة، يحتمون من العراء بالعراء.

وهي تضيق ما بين حاجبيها:

- أأضعت ميراثك يا مأفون؟

تندرت في تهكم:

- الذل أم الحسرة!

- أيها الحفدة الجاحدين.

- هذا خرف...

وأبرزت مديتي، هبوا في صيحة واحدة:

- تجرأت...

ثم همّوا بالوقوف، متقاطرين من إطارات الصور المعلقة، وتحلقوا حولي، وأخذوا يُمطروني بجواهر نفيسة، تبرق كالشهب، انكببتُ على الأرض ألتقطها في نهم، وأدسها في جيوبي، حتى صرخت:

- **حجارة!**

الإلهام الأخير

استعصىٰ عليه في البداية حتىٰ اهتدىٰ، صاغ أحلام الصغر، بلدته المطلة علىٰ أشجار الزيتون، وجه أمه، قهوتها الصباحية، التفافه حول الكمائن.

ناداه نخل «بيسان» أغوته بحيرة «طبرية» فبدأ بفرشاته رحلة موجعة.

في الأعلىٰ مآذن تحترق، قبة تتوهج بفيض نوراني سابحة في ملكوت سماوي، وسطهما طفل ملطخ بالبارود يجأر!

المنتصف جمال مسافرة تشق صحراء بلون الذهب، بجوارها دبابات مقتحمة في عنفوان، بئر نفط يتفجر سواداً في الأركان.

الخلفية طواقٍ سوداء ترتفع ملوحة بعلامات النصر تقترب من ذؤابات نخيل يتوارىٰ، خطوط غائمة تشي بهيئة فارس يهل، متداخلة مع أقوام يتكالبون حول موائد متخمة ويسدون منافذ الطريق!

أخرجت السيدة علبة مكياچها في سأم، لونت شفتيها، مسحت ظلال جفونها، ابتاعت اللوحة وانصرفت.

اللوحة معلقة الآن علىٰ جدار مسرح ملهىٰ ليلي يضج بالرقص والغناء، أما الرسام ما زال يطوف بالمدن العتيقة، يجلس علىٰ المقاهي القديمة، ينتظر رفاقاً قد رحلوا، ويترقب الطريق.

السيرك يعود

- قرب يا باشا.
- قرب يا بيه...

هنا السيرك

الأطفال نصف تذكرة.

الفقرات مبهرة.

الدخول في تمام السادسة.

الجمهور يملأ القاعة، الأفيال تحتل الحلبة بأجسادهم الضخمة ووقع اقدامهم الثقيلة، وخراطيمهم الممتدة لأقصىٰ الحدود، لا يقوي أحد علي مجابهتهم أو الوقوف أمامهم، يؤدون ببراعة وتدريب عال ألهب الأيادي بالتصفيق، والحناجر بآهات الاستحسان.

رغم طيبتهم التي يبدونها،

لكن أنيابهم العاجية وأعينهم الضيقة وأصوات نهيمهم،

تفيض بالنذر والوعيد إذا ما تجرأ أحد وساورته نفسه بترك مقاعده مع الجمهور والصعود للحلبة؛ فهم وحدهم المستأثرون بالعرض!

أما فقرة النمور والأسود فما زالوا رهن الأقفاص، يزأرون، يتنمرون، ينتظرون ساعة الخلاص، يخبطون بأرجلهم، يودون تحطيم

القضبان والخروج ليستأثروا بالحلبة أسوة بالفيلة وبقية حيوانات العرض.

لقد عزلوهم في الأقفاص بعيدا عن مسرح الأحداث خوفا علي الجمهور، يخشون من غدرهم وعنفهم، يكتفون بإطعامهم لحم الحمير بين الحين والآخر، والجوع في أغلب الأحيان حتي هلك الكثيرون.

الجمهور ما زال يحتار في اختيار الفقرة الأكثر جذبا وتشويقا سأم من رؤية الفيلة يهيمنون علىٰ الحلبة بعروضهم المتكررة المملة، يشوبها الكلفة والافتعال، يحنون لفقرة الأسود والنمور الملغاة، لاختفاء مدربهم في حادث غامض، ينتظرون قدوم مدرب مصري أم أجنبي، لا يهم! حتي يستمر العرض.

الجمهور يقول إن العرض لن يكتمل ولن تضوي الحلبة إلا باعتلاء الجميع عرشها.

كلٌ في فقرته...

ليستمتع الجمهور ويضحك الأطفال.

البلياتشو...

مازالت فقرة محببة للجميع صغارا وكبارا، يضحك بها علي الناس، أم تضحك عليه الناس، لا أحد يعلم؟

مازالت حركاته متقنة يشوبها الافتعال والتضخيم حتي ينتزع الضحكات، حركاته مبهرة ذات إيقاع سريع، غير متوقع ليبق علي الجمهور في حالة ترقب، وتبقي أعينهم منصبتين عليه طوال الوقت.

يدهشهم، يتفنن في جذب انتباههم والحصول علي تشجيعهم.

- قرب يا باشا...

- قرب يا بيه.

هنا السيرك.

فقرة الأكروبات...

ما زال الحواة يلعبون علي جميع الحبال بمهارة وحنكة، أرجلهم كالكماشات، أجسادهم مرنة، لا يقعون أبدا ولا يتعبون، يتمددون في جميع الاتجاهات، موجودون في كل الأوقات مهما تغيرت الفقرات، تبدل العرض.

مواهبهم حاضرة، قدرتهم فائقة، يتلونون بحسب المناخ، يمشون بأرجلهم أو بعجل علىٰ الحبال، لا يهم!

عامل السيرك يصيح لجذب الرواد في زي مهرج:

- قرب يا باشا...

- قرب يا بيه.

فقرة الساحر، الفقرة المثيرة الجاذبة للانتباه. شد ما يحير، أن الناس يعرفون بأن الساحر يحتال عليهم بألاعيبه وأدواته المجهزة وخفة يده، إنه احتيال لذيذ، يبهجهم، يبهرهم، يتركهم في حالة نشوة، والساحر يعلم بأن الناس يعلمون بأن ما يشاهدونه منافيا للحقيقة، لكنهم يبحرون معه في الوهم، لحظات يغيبون فيها عن الواقع المرير، ليحظوا بمتعة نادرة، يروا معجزات تتحقق في زمن نضبت فيه

المعجزات، اتفاق صامت بينهما علي الوهم والخديعة مقابل النشوة وآهات الاستحسان!

أينتهي العرض أم يستمر؟

أيظل الجمهور قابعا في مقاعده، أم يود أن يشارك الجميع الحلبة؟

لكن بلا مواهب، وفقرات متقنة، عمل دؤوب، وتدريب شاق، لا يحظى أحد بالحلبة سوى الفيلة، الأسود والنمور، البلياتشو، الساحر ولاعبي الأكروبات.

عامل السيرك في زي المهرج يهتف:

- قرب...

هنا السيرك.

سعادة البحار غباشي

أوائل السبعينات...

حي العطارين بالإسكندرية.

نشأ غباشي في أحد بيوته ابنا وحيدا لأبوين معدمين، هجر المنزل وعمره لا يتعدىٰ العشر سنوات، سعىٰ نحو البحر، تقلب في مهن شتىٰ وثيقة الصلة بالبحر، مساعد بحار الشاطئ يقوم بحمل الشماسي وكراسي البحر ونصبها للرواد، وبالليل يسترزق في الأفراح المقامة في الكازينوهات المشيدة وسط المياه التي يتراءىٰ منها البحر كلوحة مبهرة بامتداده اللانهائي، مما جعله يحظىٰ بتربة فريدة أكسبته المزيد من الأصدقاء.

بمرور الأعوام ذاع صيته واتسعت شهرته، ونظرا لكبر سن البحار القديم، ترقىٰ وصار بحار الشاطئ «المنقذ».

يتجول بزيه المميز، الفانلة الكتان الزرقاء ذات الأكمام الطويلة، سروال أبيض قصير، وطاقية بيضاء مثنية الحواف.

كان كالقائد الحربىٰ، مسئولا عن سلامة الأرواح، يقوم من أعلىٰ برج مراقبة خشبي ذي سلالم معدنية - مقام وسط رمال الشاطئ - بمراقبة المستحمين، يطلق صفارته ويمنع النزول في الأماكن الخطرة التي تشغي بالدوامات.

ذات يوم، كان على موعد مع إحدى قبضايات كرموز في إحدى بارات محطة الرمل.

شاهدها هناك «بسيمة البقلي»

بهره جمالها الرائق، حتى وجدته ذات مرة يعترض طريق عودتها إلى المنزل، والليل يزفر نسمات باردة، أخبرها برغبته في الزواج، واشترط عليها بلهجة حازمة:

- تتركين عملك وتتفرغين للمنزل.

عقد القران بجامع المرسي أبو العباس، حضره نفر قليل من أصدقائه ومن أقاربها،

سعد في طفولة بحياته الجديدة، وأمست بسيمة ربة منزل ممتازة، فأجر محلا صغيرا لبيع لوازم الصيد، وانزعج انزعاجا عابرا لما وافته ببشائر الأمومة لكن سرعان ما استحوذت عليه مشاعر الأبوة، وفرح بابنه «محمود».

في مطلع الخريف، عندما حان موعد استخراج تراخيص حق الانتفاع للشاطئ، أخبره موظف المحافظة بالقرار، وأخذ يكرر ما سمعه في اندهاش:

- يعني هدم السور والكبائن والكازينوهات وكذلك أجزاء من البحر و...

فقاطعه:

- والشاطئ!

ولأن المصائب لا تأتي فرادىٰ؛ فقد أخبره بواب العقار في مساء نفس اليوم بأن عليه إخلاء المحل، لأن صاحب العمارة استصدر قرارا بالإزالة، وسيبني مكانه برجا سكنيا شاهقا.

عاد إلىٰ المنزل مغموما، وزف إليها الخبر بصوت جنائزي، سرعان ما توالىٰ قدوم المعدات الصلبة الثقيلة نحو البحر من أوناش ذات أذرع للهدم وللحفر، وبدأ وفود العربات المحملة بكميات ضخمة من الرمال، وصدادات حجز الأمواج الخرسانية، وبدأ المكان يشغي بالعمال والمهندسين.

تفرغ غباشي لمراقبة ما يحدث، حتىٰ حفظه العمال

يتسامرون معه بليل مع أكواب الشاي.

يحكىٰ نوادره عن البحر!

ثارت في وجهه بسيمة،

وأخبرته بأن مدخراتهم بدأت تنفد، وخيرته إما أن يجد عملا أو تعمل هي، فقال في حزن وأسىٰ:

- أتودين الرجوع لعملك القديم؟

كان أحد أواخر أيام شهر أكتوبر، عندما عاد إلىٰ المنزل فلم يجد أحدا، انتابه اليأس وحاصرته الكآبة، فكر في البحث عنهم، وفكر في العودة إلىٰ مسقط رأسه، لكنه أحجم عن الفكرة. حاول العمل في أي من الشواطئ التي لم تتعرض للهدم

لكنه لم يفلح.

أصبح جلوسه علىٰ إحدىٰ الدكك الحجرية يحملق نحو البحر منظرا مألوفا لأهالي المنطقة، حتىٰ استيقظ أهل المنطقة ذات يوم علىٰ نبأ اختفائه.

قال البعض بأن هناك من شاهدوه يلقىٰ بنفسه في البحر منتحرا، وزعم البعض الآخر بأنه قد لحق بزوجته ويعمل الاثنان في إحدىٰ الملاهي الليلية بشارع الهرم.

فيما أشاع آخرون سفره للعمل بإحدىٰ البلاد العربية.

ومرت الأعوام...

ونساه الناس كما ينسون كل شيء، لكن الأمر المؤكد ان أحدا لم يربط بين غباشي ذي الثمانية وخمسين عاما، صاحب البشرة المشوبة بسمرة داكنة، وبين أحد الشيوخ القابعين بجوار جامع المرسي أبو العباس بلحيته الكثة الطويلة، وجلبابه الأبيض القصير، وساقيه الممدودتين نحو الطريق.

والذىٰ يشبهه كثيرا، رغم أن الجميع هناك يعرفونه باسم آخر

الموت والميلاد

كان أبي يصطحبني وأنا صغير إلىٰ مدافن العائلة «بالبساتين».

نسلك شارع «صلاح سالم» المُفضي إلىٰ ميدان «السيدة عائشة» ثم نعرج نحو طريق ضيق يلتف كالثعبان، تتراص علىٰ جانبيه البيوت والدكاكين.

نمر علىٰ سوق الجمعة، بيع وشراء وضوضاء، حتىٰ نصل إلىٰ المدفن بجوار جامع «فاطمة الزهراء».

هناك يجلس أبي، يخرج مصحفا صغيرا، يحمله في جيبه، ثم يقرأ ما تيسر من القرآن، وأنا جالس بجواره ساهم، أنظر إلىٰ الخلاء من خلفنا، الصحراء الممتدة بلا أثر، وتلك المقابر المتناثرة كبقع ضوء في ظلمة حالكة.

كان المدفن بلا أسوار، كنت أشعر كأن أشباح الموتىٰ تتراقص من حولي، تهمس لي بكلمات مبهمة، فيما كان أبي منشغلا بنثر الزهور فوق القبر.

كنت أتمعن في ذلك الهدوء المشوب بالرهبة المخيم علىٰ المكان، أنظر إلىٰ أفق المدينة المنبسط أمامي بلا حدود،

إلىٰ الحياة تدعوني للخوض في أغوارها، واعدة بأحلام سخية، ودروب وردية، ألوان مراوغة، وأوجه تبرق وتنطفئ كالشهب في ليلة الميلاد.

أفقتُ من شرودي علي صوت أبي، يقول لي بعينين مترعتين بالحنين:

- داوم علىٰ زيارتي يا بني كما داومت علىٰ زيارة جدك. لا تنساني، ستؤنس وحشتي، إياك وأن تغرك الحياة بزخرفها.

استغربت كلماته، أن تستحوذ عليه فكرة الموت والحياة أمامنا ممتدة متسعة رحبة، أشفقت عليه وأومأت برأسي واعدا إياه، وأنا أردد في نفسي:

- إن أبي رغم كبر سنه وخبرته وتمرسه، لم يعرف الحياة علىٰ حقيقتها، لم يشاهد وجهها المشرق الواعد، يا له من مسكين!

آن أوان الموت... ومات أبي وبكيته ونعيته في قلبي.

آن أوان الحياة... فأخذتني في خضمها وزخمها، تخرجت وعملت في مجال الهندسة المدنية، تنقلت بين عدة شركات عامة وخاصة، كسبت وأنفقت وخسرت، أحببت وكرهت، تزوجت وأنجبت طفلين.

ترددت علىٰ الكازينوهات والبارات، ارتكبت معاصي وآثاما، وفعلت الخير في السر والعلن.

تماديت في الحياة دون أن أدري إن كنت سعيدا أم تعيسا؟

ما أفعله هو ما أريده أم أنني أتحرك بفعل الجاذبية الأرضية وقوانين المد والجزر؟

تماديت، حتىٰ نسيت ذكرىٰ أبي، وبعد سنوات عديدة لم أفلح في عدها، نظرت في المرآة ذات يوم فهالني ما رأيت...

الشيب يغزو شعري، التجاعيد تزحف علي وجهي كالدخان، اختفت ملامحي القديمة، وكأنني أري شخصا آخر غيري لا أعرفه، كأنني أري صورة أبي وليست صورتي، غلبتني لحظة جمود وسكون، فرحت أتأمل صور الأجداد المتوسدة الجدران، قلبت في ألبوم الصور.

عادت ذكرىٰ أبي يانعة بثقل الكائنات الحية، تسألني، هل قاربت الرحلة علىٰ الانتهاء؟

تذكرت وصية أبي، فشيدت سورا للمدفن، ومظلة خرسانية تقي الزوار حرارة الشمس ومطر الشتاء.

أقمت بابا حديديا، ورخامة باسمه فوق الباب.

اصطحبت ابني «محمد» لزيارة أبي بعد سنوات من النسيان. نثرت الزهور، وتلوت ما تيسر من القرآن، فيما كان «محمد » يجلس شاردا، وبعد أن انتهيت التفت إليه أوصيه بأن يداوم علىٰ زيارتي وألا ينساني ألا يتركني نهبا للوحشة، ألا تغره الحياة وتغرقه في دواماتها وطنينها.

تصنع الإنصات وهو يومئ برأسه فيما كان يردد في نفسه:

- «إن أبي رغم كبر سنه، لم يعرف الحياة علىٰ حقيقتها، فهي رحلة جميلة واعدة.

«يا له من مسكين ».

وجه أبي

قال إمامنا المستنير وهو يجوّب نظراته بيننا:

- أيهما أهم القمح أم الحرية؟

ثم لمّ عباءته الرمادية وخرج من باب جانبي واختفىٰ! سألته أمي عند عودتي إلىٰ المنزل:

- ما ذا تفعل الحرية لإنسان جائع، هل تصلب عوده؟

أعجبت بكلماتها، عزمت أن أجيب بها علىٰ الشيخ في الدرس القادم.

ترددت علي دارنا «أم نعمة» جارتنا وهي تبكي، قصت كيف كبست الشرطة منزلهم، واقتادوا زوجها إلىٰ حيث لا تعلم، حتىٰ جاءها النبأ من أحد الصولات الذي استطاع استصدار أمرا لها بالزيارة،

وهما جالستين في الصالة علىٰ الأرض يعدان طعام الزيارة برق في ذهني خاطر سرعان ما أفضيت به هاتفا:

- حتي من فقد حريته لا يستغنىٰ عن الطعام.

أخذت جارتنا تبكي مجددا، مما جعل أمي تحدجني بنظرة لوم وعتاب.

في الفصل.، كان يشرح المدرس كيف أن الحرية كالشجرة تقف في وجه الريح، فأجبته في حماس:

- الشجرة في موسم الخريف تتجرد من أوراقها وتصبح كتلة خشب.

ظهر عليه استحسان سرعان ما أخفاه، بادرني قائلا:

- كلام جميل...لكن لو كتبته في الامتحان سأعطيك صفرا.

ضحك التلاميذ، بينما استغرقتني أنا الفكرة:

- الحرية شجرة، القمح نبتة، فيم التنازع؟

في حجرة الصالون يجتمع أبي مع أصدقائه زملاء المصنع، أبي رئيس وردية، خبرة، صوت جهوري، بنية قوية.

خبطت على الباب، استقبلني الجميع بالترحاب، فسألني أبي عما أريد، أفضيت له بسؤال الشيخ الذي يطلب إجابته في الدرس القادم.

أثرت انتباههم جميعا، لذا جاءت الردود والتعليقات متزاحمة حاولت استيعابها قدر الإمكان:

- الجماد والحيوان يأكلون ويشربون، هل أنت مثلهم؟

- الخبز وقود الجسد، الحرية وقود الروح.

- ما تاريخ البشرية وما بها من ثورات وحروب وصراعات...

- ما أشعار الفلاسفة والصوفيون والمصلحون ورسالات الأنبياء.

غير سعي دؤوب لامتلاك الفرد حريته بجانب خبزه، ما الاستعمار غير امتلاك حرية الأخرين مقابل فتات يلقى لهم.

قال أبي بنبرة ختامية:

- نحن نأكل كي نعيش أم نعيش كي نأكل؟

زادت الكلمات من حيرتي، لم تهبني إجابة محددة، تمكني من الرد علي سؤال الشيخ والفوز علي أقراني في الدرس.

استيقظت عند الفجر مذعورا علي جلبة وضوضاء وصوت أقدام كثيرة تدوس المنزل، فُتح باب غرفتي عنوة،

جريت مفزوعا أختبئ في حضن أمي الواقفة مبهوتة وسط الصالة، رأيت رجال كثر ملثمين يأخذون أبي بالقوة بعدما قيدوه من الخلف،

سحبوه في ثوان عبر السلم، أركبوه سيارة ميكروباص بيضاء كانت منتظرة أمام المنزل.

رأيتها من الشرفة، سرعان ما غابت كنقطة تتلاشى شيئا فشيئا كالسراب في غبشة الفجر.

منذ ذلك الحين، بدأت أمي في التغيب عن المنزل طوال النهار تاركة لي الغذاء علي المنضدة.

ثم تعود منهكة آخر الليل تسألني عن أخباري في المدرسة، وأسألها عن أبي فتقول بأنه بخير وسوف يعود قريبا.

سرت همهمات بين أقراني في المدرسة، بأن أمي تعمل في البيوت لتفي باحتياجات المنزل وأتعاب المحامي . اغتممت واحسست بالعجز.

لما فاتحتها احتضنتني وأخبرتني بأن الشغل ليس عيبا، وهذا ظرف طارئ لحين عودة أبي.

كان يوما من أيام الخريف،

لا أنساه عمري، الزغاريد تملأ البيت، الجيران يتوافدون علىٰ المنزل بأكواب الشربات وصواني الحلوىٰ، رفقاء أبي في العمل جالسين أمام المنزل يرقصون علي أنغام مزمار بلدي.

علمت أن أبي سيفرج عنه اليوم بعد عامين بالتمام والكمال، خفق قلبي بعنف فكم اشتقت إلىٰ مداعباته وكلامه الآسر.

جاء أبي كالبدر المنير، جلس بين أصدقائه علىٰ باب المنزل ثم زفوه حتي طلع البيت، جلسوا كما اعتادوا في حجرة الصالون يتبادلون النكات والقفشات وأحاديث السياسة، يهنئونه بالعودة، هو وأكثر من عامل آخر كانوا محبوسين معه.

مرت أيام وشهور طويلة،

تملكني سؤال جديد أشد حيرة، ظل يؤرقني:

- هل خرج أبي حقا من محبسه؟

شد ما تغير، كأنما من عاد إلينا رجل آخر غريب الأطوار، فقد أبي رواءه، روحه المرحة، خفة ظله. أصبح واجما ساهما طوال الوقت.

فصلوه من المصنع لكن أهل الخير وأصدقاءه أوجدوا له عملا آخر، كان يعود من العمل في الخامسة مساء.

ثم يظل صامتا بقية اليوم، جالسا القرفصاء علي الأرض في الصالة...

قهوة «عم ريحان» المجاورة لمنزلنا هجرها، جلسات الصحاب عزف عنها، حتىٰ الجرائد لم يعد يقرأها.

كانت أمي تضع أمامه الطعام لا يلتقط منه سوي لقيمات صغيرة، رغم إلحاح أمي.

الهالات السوداء أسفل عينيه لا تبارحها، السعال ينهش صدره.

أصبحت عيناه غائرتين كأنما تخفي جرحا لا يعلمه أحد، فهمت حينذاك معني كلمة انكسار الروح وانهزامها، غاضت البهجة من جو المنزل وحلت الكآبة، سألت أمي مستغربا، فردت:

- فترة الحبس تركت أثرا غائرا في نفسه سيشفىٰ منه بالتدريج.

أطل برأسه السؤال القديم، الخبز أم الحرية؟

لم أعد أحتاج من أحد اجابة.

تمنيت لقاء الشيخ إمام مسجدنا كي أخبره بالحقيقة

التي لا أظن أن أحدا يعلمها سواي، التي كانت مرتسمة بكل وضوح ودقة كلما نظرت إلىٰ وجه أبي.

تمت.